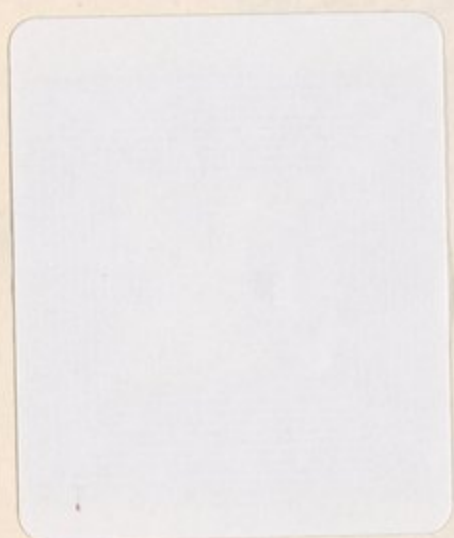
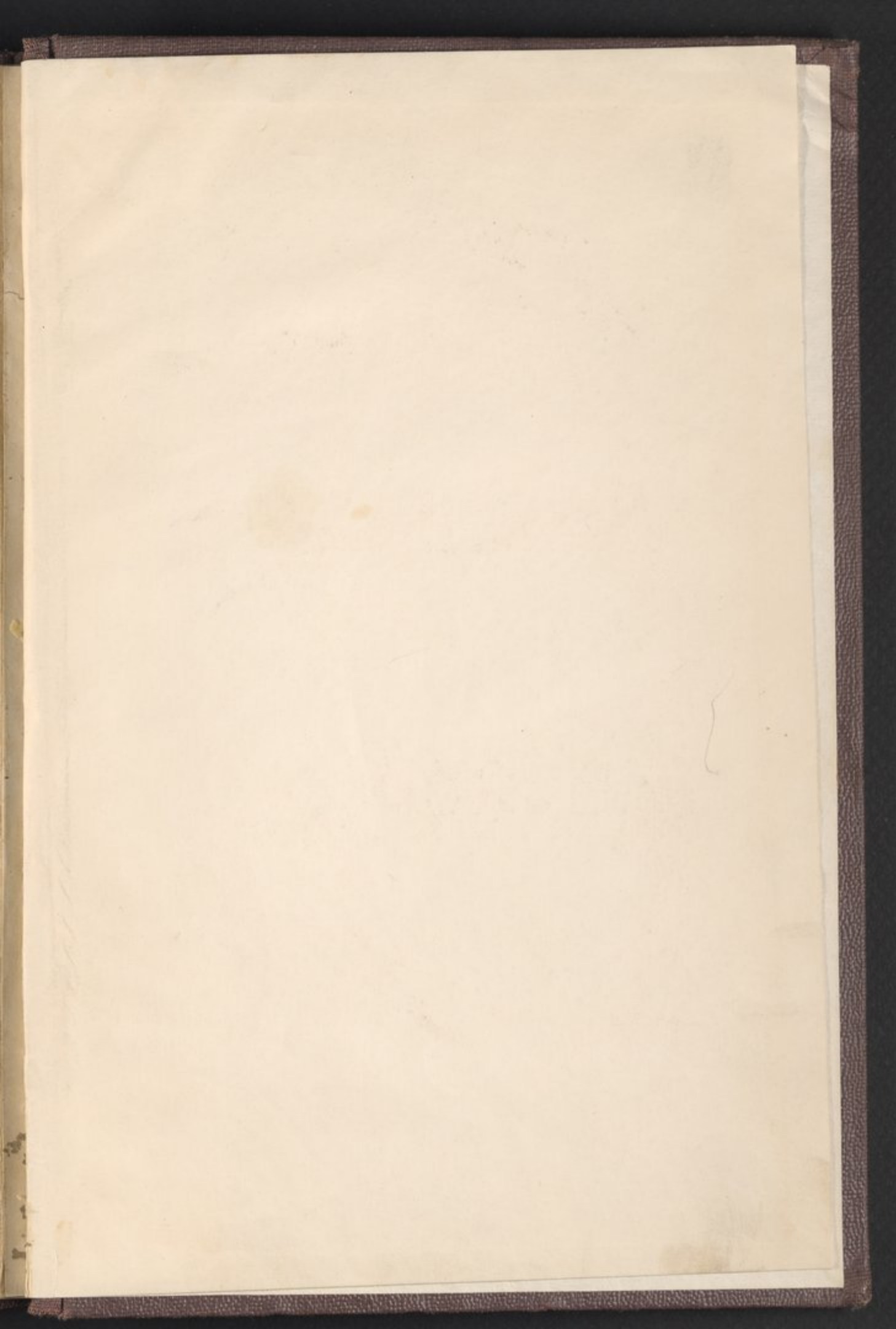


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

3 8534 01080 2357



05 - B37



DP
402
C7
N 86
1926
v. 1

الدولة الأموية

في قرطبة

تأليف

أبيس زكريا النصولي

مؤلف — معاوية بن أبي سفيان —
ومدرس التاريخ في المدرسة الثانوية ودار المعلمين في بغداد

الجزء الاول

طبع في

المطبعة العصرية

بغداد ١٩٢٦

946.02

N 186

903,09
ن 19

15453

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ويطلب الكتاب من

صاحب المكتبة العصرية في بغداد

تمت في سنة ١٢٠٠

اهداء الكتاب

الى ابي

انيس

المقدمة

دفعني الى انشاء هذه الفصول الاندلسية عوامل ثلاثة :

الاول : حناني الشديد الى التحدث لابناء العرب عن الامويين في قرطبة باسلوب علمي سهل لا مجال للعاطفة والتعصب فيه واسناد كل الاسباب الى مسبباتها سواء كانت طبيعية او اجتماعية او سياسية او دينية

الثاني : ولوعي بدراسة هذا الموضوع فرجعت الى المصادر العربية والافرنجية التي وقعت بين يدي في سوريا والعراق منذ ان كنت طالبا في جامعة بيروت الاميركية .

الثالث : احياء ذلك التراث العربي الذي كادت ان تواريه الايام ويطويه الاهمال فان اصبحت فهذا منتهى املي وان اخطأت فكلني آذان لسماع الحقيقة من اهل الفضل وارباب الانتقاد العلمي العمراني .

انيس ز لزبا النصولي

الفصل الأول

فتح الاندلس

ان اسبانيا الجميلة التي يطلق عليها العرب اسم الاندلس كانت قبل الفتح منهوكة القوى تنآ كلهما الاحزاب وتنفخ فيها سموم التفرقة والخذلان فشمعها كان ين من عسف الارستقراطية وتآلم اقليته من الاضطهاد . اجل كانت هناك اسباب تضرب بعموها من وراء صرح المملكة القوطية وان اردنا ان نعرف قوة الامة وجب ان لا نأخذ مقياسا لها ايتها وولاؤها وما تظهره من المظاهر البراقة الخلابه بل يجب ان نبحث هنا وهناك بين افراد الشعب اذ الشعب هو الكتلة التي تتألف منه قوة الامة وعظمتها ، يجب ان نبحث عن سعادة الطبقة الوسطى التي من ابناءها نرى التجار والصانع والعامل والفلاح وعن اولئك الذين عضهم الفقر بذبه فكانوا العبيد كما يدعونهم .

وهكذا اسبانيا فقد كان الضعف مستوليا على ارجائها كمقاطعة رومانية حكمها القياصرة المتأخرون وكانت كالبقية الباقية من المقاطعات الرومانية سيئة الحال . وقد قال عنها المؤرخ Salvien الذي عاش في القرن الخامس للميلاد انه لم يبق من اسبانيا الحصبة السعيدة غير اسمها (١) . ذلك لان جميع الاقطاعات التي يسمونها لاتيفنديا Latifundia قد

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الثاني صفحة ٤

اغتصبها الاغنياء القليلو العدد وجعلوها ملكا حلالا لهم يتصرفون بها
كما يشاؤون . وكانت الضرائب تجبي من الشعب الوسط فاثقلت كاهله
بينما تى الاغنياء والكهنة ومنتشروى الحكومة وكل من حاز القابا سامية
قد أعفى منها . وكان هؤلاء يعيشون فى قرأهم الجميلة القاءة الى جانب
الانهر وعلى سفوح التلال مترفين يمشون اوقاتهم فى مختلف الالعب
كالنص وغيره لاهم لهم غير الاكل والنوم والاستحمام وكان بعضهم
يحيد القراءة فىلهم بها . ثم فى قصورهم التى زينت بأنواع الرسوم اللطيفة كان
العبد يقف فى غرف الاكل لسكى يخدم اسياده وهم يشربون الخمر الفاخرة
ويشنفون آذانهم بالنغام الموسيقى ويمتعون انظارهم برؤية الراقصات والراقصين
وحياة كهذه لابد تريك الفرق الجسيم الذى يفصل الاغنياء عن

بقية الشعب الفقير وضعفاء الملاك . وكانت العبودية الزراعية Esclavage
Agricole قد انتشرت فى هذه الطبقة انتشاراً هائلا وهى الحالة الوسطى
بين الحرية الحقيقية والعبودية . كان هؤلاء العبيد الزراع أوفر حظا من بقية
العبيد اذ انه كان يؤذن لهم بشئ من غلات الارض التى يملكونها ولهم امتيازات
منها التزوج من غير استشارة صاحب الارض وكان ذلك ممنوعا على بقية
العبيد . اما الحكومة فكانت تعيرهم جانباً من التفاتها فيجندون ويدفعون
ضريبة الاعناق . وما كان لصاحب الارض ان يجرمهم مما اقطعهم اياه
ولا هم قادرون ان يبيعوا ما أعطوه الا باذن من مالكة .

وحقيقة الحال انهم كانوا عبيداً للارض لا للانسان فما كانوا ليباعوا
دون الارض التى يعملون عليها ولا كانت الارض تباع دونهم وعلاقتهم

بها علاقة لا تحل وهي وراثية يتناهلها الابناء من الآباء^(١).

اما العبيد فكانوا اتمس البشر حظا يباعون ويشرون كحيوان من الحيوانات او متاع من امتعة الببت . وهم كثير و العدد نسبة الى الاحرار فكان الواحد من اصحاب الاقطاعات يملك اربعة آلاف او خمسة آلاف او ثمانية آلاف من هؤلاء البؤساء وكانوا يعاملون بلا شفقة ولا رحمة تلعب الشياطين بابدانهم وتزهق ارواحهم ظلمات السجون ولذا كانوا يهربون الى الحراج و يقيمون في الاودية والجبال ثم يسطون على املاك اسيادهم آنا بعد آن ويسلبون السابلة و يقطعون الطرق . تلكم كانت حالة الشعب الاسباني في العصر الروماني الاخير وقد ظلت هذه الشرائع الرومانية سائدة في الحكم الاقطاعي ايام القوط ترهق العبيد والزراع ظلما حتى عشية الفتح الاسلامي

الى جانب المتألمين من الشعب الاسباني يجب ان انضم اليهود الذين قاسوا من الاضطهاد الشيء الكثير فلا بدع اذا طربوا بوم قد دم العرب الى افرريقية اذ انهم كانوا يودون التخلص من الاسبان القوطيين واستبدلهم بالاسبان من العرب . كانوا قبل ان يتسلم الملك ريكارد العرش الاسباني (٥٨٦ — ٦٠١) في سعادة وهناء لانهم كانوا مديري دفعة المالية في الاندلس لمسالهم من الخبرة الواسعة في الاقتصاديات والمهم بدقائق التجارة واحواها واليهم كان يرجع حرت الارض واستندرار خيراتها وغناها^(١) ولكن لم يكدر ريكارد يستلم زمام الامور

(١) "DOZY" Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الثاني
صفحة ٧

(١) History of the Jews by H. H. Milman D. D. الجزء الثاني

صفحة ٢٥١ راجع الفصل الثاني والعشرين من هذا الجزء .

حتى عقدت المؤتمرات القاضية بتعذيبهم وسنت القوانين لاضطهادهم وذلك بدافع التعصب والحسد والطمع فما عاد يؤذن لليهود باقامة شعائرهم الدينية ولا الزواج حسب شريعتهم وتقاليدهم ولا أيسح لهم الختان ولا انتقاء اللحوم ولا التفريق بينها ولا الشهادة على المسيحيين ولو بحق وكل من يخالف هذه الاوامر يرحم بالحجارة حتى يموت او يحرق حيا . وهذه القوانين ما كانت لتوضع في بدتها موضع التنفيذ تماما وذلك لما كان يبذله اليهود من الاموال على سبيل الرشوة لاولياء الامور وقد زاد عليها الملك سبوت (٦١٢ — ٦٢٠) غيرها من المواد منها عدم الاذن لليهود باقتناء العبيد من المسيحيين ومن لم يسر بحسب ذلك يحجز نصف املاكه ومقتنياته

ولما كان الزواج شائعا بين اليهود والمسيحيين من الجنسين فقد صدر قانون في هذا الشأن يقضي بان يُرَبَّى الابناء المولودون من والدين احدهما مسيحي حسب المعتقد المسيحي . اما من يرتد من اليهود الذين تنصروا فكان يحكم عليهم بالعبودية الدائمة

ولم يكتف الملك سبوت بهذه القوانين بل صمم على اعدام الامة اليهودية في اسبانيا ولذلك اصر بان يعتنق اليهود اجمعهم الدين المسيحي والا كان جزاؤهم الطرد من البلاد فتنصر منهم تسعون الفا مسيرين لا مخيرين وقد أُجبر كثير منهم على الهرب الى فرنسا وافية بقة . اما من اصر منهم على اتباع معتقده فعمل بالشدة وقاسى في غياهب السجون عذابا شديداً

ومن وقف معارضا للملك في احكامه العالم ايسيدور الاشبيلي

(٥٦٠ - ٦٣٦) Isidore of Seville ومع ذلك فكانت صرخاته في واد
ولما كان العدد الاكبر من اليهود قد ظل على معتقده سرا وان
اظهر النصرانية علنا فقد امر مجمع طليطلة لرابع سنة ٦٣٣ م ان يؤخذ
منهم اطفالهم لكي يربوا في الدير^(١) اما مجمع طليطلة السادس
(٦٣٨ م) فعاب تاهل المجمع الرابع وقرر ان لا يعتلي ملك عرش
اسبانيا الا اذا اقسم انه يضطهد اليهود ومن لم يفعل ذلك منهم يخلع^(٢)
ولذا نرى بعد ذلك مجمع طليطلة الثامن يجبر الملك ان يحافظ على قسمه
وان ينفذ القوانين المختصة باضطهادهم

وايس من الغريب ان نرى يهود اسبانيا تتآمر مع يهود افرريقية
لاستعجال العرب الفاتحين الذين امتد سلطانهم على افرريقية الشمالية
ولذا اتهموا بالجريرة الكبرى وهي انهم حاولوا تسليم البلاد للاعداء
واسقاط الملكية وذبح المسيحيين فشدد الملك اجيكا Ejica النكير عليهم
وعقد مجما في طليطلة طلب فيه عقابهم الشديد وقد اقر اليهود يومئذ ان
بمعلمهم هذا ارادوا ان يجعلوا اسبانية يهودية فحكم عليهم بالعبودية
وحرمتهم املاكهم ومنع الزواج فيما بينهم فاصبحت اليهودية لا تزوج
الا مسيحيا واليهودي لا يتزوج الا نصرانية^(٣) وشتوا في انحاء المملكة
او هربوا او ساعدوا المسلمين بكل مالهيم من مال وقوة ومع كل ما
لاقوه لم يتحولوا عن دينهم بل حافظوا عليه وتمسكوا به^(٤) وكانت نتيجة

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٠٥ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٦ . Milman
الجزء الثاني صفحة ٢٥٥

(٢) Milman الجزء الثاني ٢٥٦ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٧

(٣) Milman الجزء الثاني صفحة ٢٦١ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٨

(٤) ذلكم لان الشدة متى تجاوزت حدها جمعت من المضطهدين رجلا .

الأضطهاد ان جملت منهم قوة من اعظم القوى التي دمرت المملكة
القوطية ^(١) فان مساعدة اليهود لفئة صغيرة من العرب جعلتهم ان
يخضعوا امة تتألف من ستة ملايين

وكان كل من العرب واليهود يعمل لمصالحته الخاصة فاليهودي قوي بماله وقد
زاده اضطهاده المتواصل قوة وجعل منه رجلا شديد الانتقام يطلب
التخلص من الكابوس القوطي واستبداله بحكومة متساهلة تكفل
له الراحة والهناء لكي يعلي شان المعاملة وكسب الامول. اما العربي
فكان يود الغنيمة من الفتح ولذا اتفق الشعبان في الغاية

ولا يغرب عن بالنا ان اليهود بعد الفتح كانوا اما ان يماثلوا الاسبان
على العرب او العرب على الاسبان وذلك حسب ما تقتضيه مصالحهم
فلما اضطهدهم العرب لما لهم الوفير رجعوا الى الاسبان خاطبين وودتهم
طالبين مساعدتهم وساعدوا الفونس السادس على تسلم عرشه قسطاله
وليون سنة ١٠٨٥ م ^(٢)

لاشبهة ان لليهود ضلعا كبيرا في فتح اسبانيا وان اهمل ذكرهم مؤرخو
العرب والاسبان ولا بد ان يكون موسى بن نصير قد جعل من اليهود
انصاراً واعوانا اذ منهم كان يأخذ التلميحات والاخبار عن اعدائه مع
الاحصاءات الكثيرة وذلك عن طريق التجارة وبها توصل العرب
الى معرفة حقائق جمة. وكان لهم علاقات كبيرة مع الكونت يوليان

(١) History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott

الجزء الاول صفحة ٢١٢ - ٣١٢

(٢) Coppo الجزء الاول صفحة ٢٠٨

حليف العرب في الفتح اذ هو ايضا طلب مساعدتهم وقد اظهر اليهود للقائدين موسى ويوليان كرما حاتما لان الصفقة رابحة والتجارة غير خاسرة (١).

اما اتصال اليهود باسبانيا فيرجع الى عهد سليمان وذلك حينما كانت اساطيله تنساب من ترشيش حاملة اليها الذهب والفضة والعاج وكان بعض تجارهم قد استوطنوا اسبانيا وجعلت جاليتهم تكثر في الاندلس لكثرة من ساد على وطنهم من جيوش الفاتحين فاخذوا يهاجرون الى اسبانيا موجات موجات عن طريق افريقية الشمالية ولما هدم طيطس القدس (اورشليم) ام قسم كبير منهم تلکم الديار ونظراً لذكائهم ومهارتهم في الصناعة والتجارة فاقوا الشعوب الاسبانية بما جمعه من المال فادى ذلك الى اضطهادهم وكرههم مع شئ من العوامل الدينية وكان في اسبانيا حزبان يتطاحنان كل منهما ايود التسلط والقضاء على الحزب الآخر. الاول رئيسه ابنا غيطشه Witiza والثاني رئيسه لدريق (رودريك Roderik) من تصب عرش ايهم

وذلك انه لما توفي اجيكا الملك القوطي في نوفمبر سنة ٧٠١ تسلم العرش ابنه غيطشه الذي كان حاكما في الشمال الغربي من المملكة وقد كان من بدء اعماله اتفهوه القوم من بعض الضرائب وبذله المال للرجال والعضو عن المنفيين الذين كانوا قد اُبعدوا بامر من ابيه وذلك لكي يستولي على القلوب ويعيش امنا ولكنه بعد ان سار شوطا جليلا في ميدان الاصلاح احاط نفسه بحاشية مبتذلة ليس لها من الاخلاق

السامية مايردعها عن ارتكاب المنكرات وعلى رأسها الملك نفسه
وقد كانت الكنيسة الرومانية نائمة عليه لاعطائه الرخصة للسكينة
بالواجب واصدار اوامره لليهود المنفيين بالرجوع الى اسبانيا واستمتاعهم
بالحقوق الوطنية الالهية التي كانت للمسيحيين حتى انه اعلن ذلك في
مؤتمر عقده في طليطلة

ولما اتاه رسول البابا طالبا اليه ان لا ينفذ ما اصدره من القرارات
ضرب بملاحظاته عرض الحائط واني ان يلبي طلبه وعوّل ان يجعل
الكنيسة تابعة لاوامره ولاجل ذلك اصدر قراراً ينص بان يكون
للكنيسة «رئيسان» حاميان لها ولذا عين اخاه اوباس Oppas
مطران اشبيلية مطرانا لطليطلة ايضا بجانب سندير يدو Sinderedo رسول
البابا فيها ليكون عوناً عليه ورقباً^(١)

وهذه الحال المملوءة من الانحطاط الاخلاقي حملت الشعب على
الثورة ومناصبه الملك المراء لكن الملك كان رقبياً عليهم وقد اخذ
عدته لمناجزتهم الحساب ففتك بالامراء والكبراء الذين كان الشعب
يعتمد عليهم وهذا ما زاد في سخطهم وكرههم له
ثم امر ان تهدم اسوار المدن الثائرة وان تحلى الحصون من وسائل
الدفاع^(٢) ومما زاد في الطين بلة جمعه سلاح الالهيين حتى جعلهم ضحايا
اعتسافه على ان هذا لم يطل فانه توفي سنة ٧٠٩ م
وتسلط لذر يق اكبر زعماء المعارضين لغيظته وتغلب على الاندلس

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ١٥٠

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ١٥٣

ولم يكن من سلالة الملوك^(١) الذين اعتلوا عرش اسبانيا بل رجلا نبيلاً محترماً لشجاعته ومواهبه . وضع نفسه على رأس حزب شعبي فرفعه الى العرش بدلا من وارثيه الشرعيين . وكان حزبه يتالف من الرومانيين الذين استوطنوا اسبانيا ورجال الكنيسة الكاثوليكية قد نجح لدريق باستمالة هؤلاء وبعض كبار بلاط غيطشة الذين نظر والى المستقبل وما يحيط به من غياهب السياسة المقبلة وهم على الغالب ممن يمثلون الدورين في كل مملكة ويجعلون الاحزاب وسيلة لغاياتهم الشخصية ثم ان غيطشة كان قد منع الزواج بين الرومان والقوط لكي يجعل حداً واضحاً و فراغا كبيراً بين القوط الغالبين والرومان المغلوبين^(٢) وهذا ما ادى الى التنافر بين الشعبين بدلا من تقاربهما واندماجهما بهلات القرابة

ولهذا كان الشعب متمبنا للثورة فاشتعلت في قرطبة حيث يكثر اشباع لدريق من الرومان ورجال الكنيسة الكاثوليكية و سار الى طليطلة حيث توج وما كاد يعتلى العرش حتى نسي الشعبية وغاص مع حاشيته في بحور اللهو ففضى اوقانه بين الكؤوس والولائم حتى اعتل جمعه ولم يمد في جنده تلكم الروح الحربية المجيدة والحماة الزائدة التي دفعت القوط من قبل الى اجتناء اكاليل النصر من البلطيك الى البحر المتوسط ان الضرائب الجسيمة التي كانت يجبي من الشعب لاجل ترف الملك وهو اصحابه لم تكن نتيجتها الا لشقاء و الفقر المدقع في الامة . هذعدا الطاعون الذي كان يرتاد البلاد مرة اثر اخرى من ايام اجيكا فيهم

(١) فتح الطيب من غضن الاندلس الرطيب ل احمد المقرئ الطبعة الازهرية المطبوعة الجزء الاول صفحة ١١٧ (٢) Toppe الجزء اول صفحة ١٧٥

المجوع بنابه . اجل ذلك خسر القوط قواهم الحربية حتى انهم اصبحوا
فريسة لاي عدو مهاجم

ولما كانت قرطبة مركزاً رئيسياً لاشياعه الرومان والكاثوليك فقد
جعلها عاصمته بدلا من طليطلة التي كان فيها انصار غيطشة وابتاؤه .
ونزل في اقصر الذي يدعو العرب بلط لدريق

اما ابناء غيطشه وحزبهم فكانوا يميلون الى العرب لكي يتخلصوا
من لدريق المعتصب ويقول ابن القوطية انهم ثلاثة المنذ Olemundo
ورملة Romule وارطباس Ardabast ولكنهم لم يستقدموهم لفتح
ولم يعملوا زوارقهم تحت امرتهم لنقل الجنود^(١) اذ ان الزوارق التي ام
بها العرب الاندلس هي للكونت يوليان وهذا ما يؤكد جميع مؤرخي
العرب ولم يسر ابناء غيطشه ويخبروا طارقا الا حين نزل المسلمون
اسبانيا . ترى ما كان مقصدهم في خيانة لدريق ؟ هل كانوا يريدون
بذلك المحافظة على املاكهم كما يدعي ابن القوطية ؟

هذا ما نعتقده امراً ثانوياً في نظرهم اذ ان الهدف الذي كانوا يرمون
اليه بكل قواهم هو الساطة والمرش ولم يفكروا ان تسليمهم البلاد
للمسلمين هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ امانهم بل كانوا يظنون ان هؤلاء
العرب الغرباء راغبون في المنعم عاملون على القبول لا حاجة لهم في
استيطان بلادهم^(٢) بل ربما كفوهم امر لدريق فاذا ما انصرفوا اقمداوا
في ملكهم من يستحقه . ان ذلكم الاستنتاج كان عنلما منطقيا اذ ان

Recherches sur l'Histoire et la Littérature De l'Espagne (١)

pendant le Moyen Age par R. Dozy الجزء الاول صفحة ٦٩

(٢) نفع الطيب الطبعة الازهرية المصرية صفحة ١٢٠ الجزء الاول

طارقا اتى اسبانيا بحملته لاكتشافها وسلب شواطئها كمن سلفه ولو
كان موسى عالما بان تلكم الغزوة ستتحول الى فتح كبير لجهاز طارقا
بالجيوش الكثيرة لا بحملة تتألف من اثني عشر الفا بامدادها ولا اتى
بنفسه ليفخر بشرف الفتح ويكون له النصيب الاوفر من الغنيمة .
ويؤكد ذلك المؤرخون العرب بدعواهم ان موسى حشد طارقا
لاتصاراته الباهرة وقوله له يوم التقى به في اسبانيا حين قدمها « ما
دعاك الى الانيال والتفحم في البلاد بغير امري وانما كنت بعثتك غازيا
ثم تنصرف » (١) .

وهذا ما ثبت لنا ان تفكير ابناء غيطشه كان حقا اذ ان المدولم يأت
بلادهم للاقامة فيها واءلاء كلته ورفع لوائه ونشر دينه وشرائعه ولكن
الفتح على ما سنذكر اخذ دورا لم يفكر فيه ابناء غيطشه وموسى حتى
ولا طارق نفسه وذلك انه لما رأى تضعف الجيش القوطي امامه
وانخذاله لم يسر بحسب الاوامر المعلقة اليه ولم يرجع الى افرينيا كما
امره موسى بل سار الى الامام فاصبحت اسبانيا في قبضته . وقد مكنته
الاهلون ايضا من الانتصار اذ انهم رأوا في جيشه رسل الحرية وهاضي
صرخ العبودية فترزعت اركان المملكة وخضع امرؤها وكبارها
له فحذا حذوهم ابناء غيطشه وعقدوا المهادنات مع المسلمين وبهنا
يحفظون املاكهم (٢) ولا ريب انهم بطمعهم في السلطة وانانيتهم كانوا

(٢) (٢) هذا قول عريب عن المؤرخ . . . (من كتابه

سببا قويا في انتصار العرب و انخذال القوط .

ومن جملة الاسباب التي اضعفت اسبانيا هو انحطاط الكنيسة
الاخلاقي . ان تلك القوة العاقلة التي رفعت العالم الانساني من الوحشية
وسنت له من القوانين ما ظل محافظا عليها ليو منما قد اصبحت بيد قوم
تطيب لهم الحرة ويحلولهم معايرة الغيد وقد كانوا لا يعرفون من
المعتقد المسيحي وفضيلته الا الطقوس والاحتفالات الخارجية اما
جرائم المرء الخاطي عندهم فكانت تعنى بقدر ما كان يدفع الى صندوق
الكنيسة وجيب الكاهن من الاموال (٢) ولا ريب ان الفضيلة كان
لها من يدهم انصار اذ ان لكل قانون شواذاً .

هذه هي الاسباب التي كانت تعمل دووما لهدم الدولة من الوجهة
الاسبانية ولتنظرن الآن الى الاسباب التي جعلت العرب ان يروا
في الاندلس ميدانا واسعا لمطامعهم .

ان الشعلة الاسلامية التي سرث من الحجاز فعمت فارس والعراق
وسوريا ومصر اخذت تفسح لنفسها طريقا الى موريتانيا وذلك عن
يد القائد موسى بن نصير .

ولد موسى في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) وابوه
نصير اصله من مسيحيي عين التمر في العراق ممن اصابهم خالد بن الوليد
وقد صار بعد ذلك وضيعا لعبد العزيز بن مروان اما موسى فاطهر
نجبة وذكاء في صغره مما استلفت اليه انظار الخليفة . ولما ولي هذا اخاه

استبانتنا على الفرس النابغة الميلا



Faint, illegible markings or ghosting of text, possibly bleed-through from the reverse side of the page.

بشر بن مروان على البصرة اشخص معه موسى بن نصير وزيراً
ومشيراً. فاقتطع هذا نفسه من اموال العراق (١) مما يوجب عليه
القانون المحاكمة فهرب الى دمشق ولجأ الى عبد العزيز اخي الخليفة
وكان يأمل بموسى خيراً فحفظ حياته. ولما ولي عبد العزيز نائباً للخليفة
على افريقيا صحبه موسى الى مصر فكان من اشرف الناس عنده وقد
جعله قائداً عسكرياً مهمته اخضاع البربر فسار اليهم ووطد شوكة الخليفة
في الزاب ودرهار والصحراء ومصمودة واعتنق اكثرهم الاسلام ودفعوا
الضريبة التي اشترطها عليهم. وهؤلاء البربر كالبدو الرحل يطلبون
الماء والكلاء للمرعى جماعات جماعات ويفزون بعضهم بعضاً فياكل
التوي منهم الضعيف. ولكثرت من بسط نفوذه عليهم من الدول
كقرطاجنة وروما والفاندال والبيزانطيين لم تكن بينهم من رابطة
تجمعهم الى ان جاء العرب فاحكم موسى الوصلة معهم. ومما سهل له
ذلك اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم فاتي الاسلام دين الامة الفاتحة
بلادهم والداعي الى اصلاح يفوق ما تعودوه من الوثنية ديانتهم القديمة
فجمع العرب واياهم برابطة الدين القوية (٢) ولم يكن للنصرانية واليهودية
بينهم من اساس ثابت وكان بعض قبائلهم قد اسلم باحتكاكهم مع الفاتحين
الاول.

ان موسى رأى ما فعل الاسلام بتلك الامة العربية من جمع
شتاتها ورفعها الى مستوى الانسانية الراقية ولذا امل ان يجعل من الامة

(١) كتاب لامامة والسياسة مطبعة الفتوح الادبية الجزء لثاني صفحة ٤٩

(٢) الجزء الاول صفحة ٧١

البربرية رجالا يجمعهم والعرب معتقد واحد هو الاسلام . فكانت هذه هي خطته التي سلكها وبها جعل لاعماله العسكرية نتائج حسنة اذ لولاها اكانت المنفعة من هؤلاء البربر للاسلام عقيمة ان لم تكن كلاشي . وموسى اشهر من عرف بنشر الدعوة الاسلامية فلقبه Coppe بـ Propagandist ^(١) فكان يتقرب منهم ويصلي بهم ويخطب فيهم فهدوا اليه من كل جانب .

وفي السنة ٧٠٥ توفي عبدالملك بن مروان وخلفه ابنه الوليد الذي امتدت سلطنته من ضفاف الكنج الى شواطئ الاطلانتيك . وقد لقبه كونه بالقائد الاكبر للمسلمين في المغرب وامير افريقيا فالتست سلطته ولم يعد يتلقى الاوامر من نائب الخليفة في مصر بل من دمشق دار الخلافة . اما وقد اصبح البربر يدينون بدين الاسلام وهم مشهورون بحب القتال وفيهم تلك الفرزة الحربية وحب الغنيمة فعرف العرب موضع ضعفهم وجيشوا منهم الجيوش الى اسبانيا لكي يشغلوهم عن طلب الحياة الاستقلالية واتخذوهم حلفاء لهم في الفتح نظراً الى شجاعتهم وممارستهم القتال ^(٢) وبذلك فاز العرب بقوى البربر ساعدتهم الايمن في الفتح . وجعل موسى من طنجة قصبه ملكهم المحطة التي كان يضرب بها سبته مفتاح اسبانيا .

لو نظرنا الى الحارطة لوجدنا ان افريقيا الشمالية متحدة جغرافيا

(١) CIF الجزء الاول صفحة ٧٢

(٢) La Civilisation des Arabes par Dr. Gustave Le Boi الجزء

الاول صفحة ٢٦٩

مع اسبانيا لا يفصلهما الا مجاز طوله اثنا عشر ميلا وهي لا تختلف في
محصولاتها وتربتها ومناخها بالشئ الكثير عنها .

ان احتلال العرب افرقيا الشمالية وسكنناهم بها حرك فيهم حب
الفتح سيما وهي تشبه سوريا بسماتها العافية وارضها الجميلة واليمن
بطيبة الجو وحسنه والهند باطياها وزهورها ومصر بخصبها والصين
بجارتها الكريمة (١) . اجل غناؤها الطبيعي ومدنها العاصرة المملوءة
بالآثار ومعادنها الكثيرة وانهارها الكبيرة ومياهها العذبة وتربتها
الخصبة وحيواناتها المتعددة ومواسمها التي ضاهت مواسم النيل والفرات
جعلت العرب ان لا يتخلوا عنها وهي سهلة الفتح والقياد (٢) .

ان سبته كانت الحصن الوحيد الذي ثبت امام العرب (٣) وكان
حاكها يدعى يوليان قاتله موسى فالغاه في نجدة وعدة فلم يطقه ورجع
الى مدينة طنجة فاقام بمن معه واخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق
عليهم والسفن تختلف اليها بالمؤن والذخائر من الانداس من قبل
ملكها غيطشه الى ان هلك واضطرب جبل البلاد بالمنازعات الحزبية
ولم يكن يوليان حاكما لافريقية من قبل الملك الاسباني بل عاملا لامبراطور
القسطنطينية على سبته وضواحيها (٤) . ولما كان حاكم سبته محاطا بالبربر
من كل جانب وبميدا عن العاصمة البيزنطية لما بينهما من البعد الشاسع

(١) Gustave Le Boi الجزء الاول صفحة ٢٧٢

(٢) History of the Moorish Empire in Europe الجزء الاول صفحة ٢٠٥

(٣) Coppe الجزء الاول صفحة ٧٩

(٤) Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne

الجزء الاول صفحة ٦١

فمن البديهي ان يتقرب من الملك القوطي ، الملك المسيحي الوحيد في
جواره ويخضع لسلطته الاسمية . وكان يلقب بالـ Exarchi او Exarque
ومعناها الكونت .

وكان يوليان يرى في لذريق الرجل المعتصب ويميل الى حزب
غيطشه اذانه صهره وصديقه فلما استولى العرب على طنجه وطلب
منه ابناء غيطشه المعونة على خصمهم لذريق تنازعتهم الاهواء فماهل
ينكسب لذريق ويعقد معاهدة مع الاعداء تحفظ له مصالحه وترجع
الى العرش ورثته الحقيقيين بمساعدة هؤلاء العرب الذين لا يطلبون
سوى الغنيمة ام يظل ثابتا الى النهاية . لكننا نعلم انه صمم على نكبة
لذريق وينسب اكثر المؤرخين من العرب والافرنج ذلك لما لحته من
العار في شرف ابنته فلورندا كافا (١)

ولكنه كان للمنافع السياسية والاقتصادية التي نوهنا عنها السبب
الاكبر في انضمامه الى الفاتحين (٢) ولم تزل جنسية يوليان رهن البحث
والتنقيب فمنهم من يجمعه بالبربر وغيرهم بالقوط واليونان والرومان (٣)

(١) نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب الطابعة الازهرية المعبرية « يقول بنو
الخصوص » انه كان من سير اكبر القواد والامراء في الاندلس ان يعمثوا اولادهم
الى طليطلة دار الملك ليتأدبوا بآدبه فاتفق ان فعل ذلك يوليان فلما صارت ابنته عند
لذريق احبها حباً شديداً ونكحها في شرفها فاعامت بذلك اباهاً مرأفاشئتت حميته وود
الانتقام — باختصار الجزء الاول صفحة ١١٨ و Coppe يذكر خبرها في الفصل -
السابع من الجزء الاول صفحة ١٩٤

(٢) History of the Moorish Empire in Europe الجزء الاول صفحة ٢٢٤

(٣) ان Scott ينسب يوليان الى الروم (اليونان) جزء اول صفحة ٢٢٢
و Coppe يعتقد انه روماني اما مؤرخو الاسبان فيقولون انه قوطي الجزء الاول صفحة ١٩١
اما Dozy فيشك في جنسيته

وكانت جيوشه خليطاً من شعوب افريقيا لم يئازعه الاسبان امارته
حين تقلصت السيادة البيزنطية عنها ولا سطوا عليه لانهما كانا
بالمنازعات الحزبية وتعدد من اعتلى العرش في امد قصير

وكيما يصل الى هدفه اسر يوليان الى من يتق به ان يوعز الى
لدريق في غزو غاسقونيا (جيايقية) في الشمال واخضاع البشكنس
Basques وبذلك تم له ابعاده مع جنده واتسنى له ابرام ماوده
من الشروط مع العرب دون رقيب . ويقول القرطبي ان معاهدته
عقدت في القيروان اما المقرئ فيخالفه في ذلك ويذكر انها تمت في
سبته وهذا هو الارجح ومهما يكن من امر الموضع الذي اجتمعوا
فيه فيوليان قد جعل موسى على بيضة من ضعف البلاد وخلو حصونها
من الحامية ونقمة ابناء غيطشه . وشوقه الى فتحها فوصف له حسناتها
وما جمعت من اشتمات المنافع وانواع المرافق وهون عليه ذلك حال
رجالها وانعتهم بضعف البأس (١)

وليتحقق موسى صدق عزمته طلب منه ان يشن الغارة على
شواطئها مكتشفاً ففعل يوليان ذلك وحل بساحل الجزيرة الخضراء
فاغار عليها وقتل وسبي ورجع بالغنائم وكان ذلك في ديسمبر سنة ٧٠٩ م
اي عقب سنة تسعين هـ .

فكتب موسى الى امير المؤمنين الوليد يخبره بما تم له مع يوليان
و ادعاه اليه ويستأذنه في اقتحام الجزيرة

(١) نفع الطيب الطبعة الازهرية جزء اول صفحة ١١٨

فأمره ان خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها^(١) وذلك لكي لا يجازف بارواح المسلمين فبهت موسى آتئذ مولى له من البربر اسمه طريف يكنى ابا زرعه في اربعمائة رجل معهم مائة فارس سار بهم في اربع مراكب فنزل بطارفة وهي تسمى ارب Aljeziras التي يدعوها العرب بالجزيرة الخضراء . فاصاب منها منها وكان ذلك سنة ٩١ هـ هجرية . وقبل ان يتناول اسم الاندلس اسبانيا باجمعها فقد اطلقه بربر طريف على طارفة وذلك ان Traducta وهو اسمها الروماني هي الميناء الذي البحر منه الفاندال الى افريقيا حين هجرتهم فاقتربت اسمها بهم وليس من الغريب ان يدعوها بربر طريف فاندلوس ، Vandalos ولا ريب ان طارقا حين فتح اسبانيا مؤخرأً وسعت السكامة في عرفهم ولم تعد تطلق على طارفة ومقاطعتها فحسب بل على البلاد باجمعها^(٢) وكانت جماعة من القرصان العرب نام الشواطىء الاسبانية غازية سابية غير متوغلة في البلاد قبل ان يحلم المسلمون بالفتح حين تم ليوليان وطريف النصر اخذ موسى بالاستعداد واستجد عزما في اقتحام اسبانيا فدعا مولى له كان على مقدمته ومن اكبر المحرضين على غزوها يدعى طارق بن زياد بن عبد الله . ويقول كوبه Coppe انه فارسي همداني وقد صار مولى لموسى من صغره الا انه على الراجح بربري من نفرة فلقبه المؤرخون بطارق البربري . وكان طويل

(١) نفع الطيب الطيبة الازهرية جزء اول صفحة ١١٨

(٢) Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne

الجزء الاول صفحة ٣٠١ - ٣٠٢

القائمة احمر الشعر مبيضه ويدعوه الاستبان طارق Eltuerto اي
الاحول (١)

فعمد له موسى سنة ٧١١ وبعثه في سبعة آلاف من الجند جلهم
من افرسان البربر والموالي . اما العرب فكانوا قادتهم وضباطهم وهم
لا يزيدون على اثلاثمائة . ووجهه معه يوليان فحمل هذا الجند اسطول
تجاري يتألف من اربع سفن يمخرن في عباب الزقاق . وهو خاصة
يوليان وقد نزل الجند في منت كلبه Mont Calpe الذي دعي جبل
الفتح او جبل طارق

وبعد نزول الجند الى الشاطىء اخذت سراياه تضرب في الارض
الرعب وتتقدم لشافته الفرسان في البلاد المجاورة . واول من وقف
في وجه الفاتحين مدافعا عن البلاد هو القائد ثودمير The admir
ويدعوه العرب تدمير واليه تنسب المقاطعة الواقعة في الجنوب اشرقي
من الاندلس اذ كان حاكما عليها (٢) ولم يناجز العرب في معركة فاصلة
بل كان يحمل عليهم مناوشات خفيفة آنا بعد آذ ويرتد الى الورااء
طالباً النجدة من الملك . ومن كتاب له الى عاهله قوله « انه قد نزل
بارضا قوم لاندري أمن السماء هم ام من الارض (٣) ارسل اليـنا
الامداد وان اتيت يا صاحب الجلالة بنفسك كان ذلك اولى ،

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٧٨

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٤٤

(٣) نفع الطيب الطبعة الازهرية المصرية صفحة ١١٢ . Coppe الجزء الاول صفحة

٢٤٥ و History of the Dominion of the Arabs in Spain, Conde

جزء ١ صفحة ٥٥

ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس
وخيانة يوليان وهو في غزاة له في الشمال فاقبل بجموعه الى مدينة
قرطبة واستفز اجناد الاسبان وكتب الى اولاد غيبيشه يدعوهم الى
الاجتماع معه على حرب العرب ويحضهم على ان يكونوا على عدوهم
يداً واحدة ^(١) فاتوه مرصدين لمكروهه لما قدمناه من الاسباب
واتوا قرطبه ونزلوا اكناف « شفندة » بعدوة نهرها

وعسكر لذريق في نحو ٥٠ الى ٩٠ الفا ^(٢) ضعاف النفوس للترف
الذي اصابهم وكان عدد وفير منهم لا يحسنون استعمال السلاح . هذا
عدا عن المشاحنات الحزبية والخيانة التي كانت تلعب من وراء ستار
فطلب طارق من موسى الامداد حين خف اليه لذريق بما لاقبل
له به وكان هذا منذ وجه طارقا قد اخذ في صنع السفن حتى صار
عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف فاصبح
جيشه اثني عشرة الفا ^(٣)

وكان في هذه المدة قد تقدم طارق بجيشه الى جوار مدينة شدونه
(صيدونا) ولذريق الى شاطيء Guadakte كوادلتي « وادي
لكة »

انه لمن الصعب ان نحدد الموقع الرسمي الذي اشتعلت فيه المعركة

(١) نقح الطيب الطبعة الازهرية المصرية الجزء الاول صفحة ١٢٠
(٢) المقرئ و Coppe يعتقدان ان الجيش القوطي كان مائة الف اما Conde
فيخالفهما ويقول ان الجيش القوطي كان تسعين الفا . ولكن ابن خلدون يقول ان
الجيش كان اربعين الفا في الجزء الرابع صفحة ١١٧ . Coppe جزء اول صفحة ٢٤٦
Conde الجزء الاول صفحة ٥٦

(٣) المقرئ جزء ١ صفحة ١٢٠

الفاصلة اذ أنه غالباً ما يطلق على المعركة اسم النهر او البلد المجاور لها فلما استعرت نار الواقعة بالقرب من مدينة Xerxes de la Frontera (١) دعاها بعضهم بهذا الاسم . ويقال لها ايضاً معركة Guadalte وهي مشهورة به نسبة الى النهر الذي كان الحد الفاصل بين الجيشين حين نشبت المعركة وهو يجري نحواً من خمسة وسبعين ميلاً في سهل شدونه وتصب مياهه في خليج قادش . ومما يذكر ان القتال كان على اشده بالقرب من بحيرة La Janda امام مدينة شدونه

وقد دامت المعركة ثمانية ايام اكد كثير من المؤرخين خسران الاسبان اياها قبل ابتدائها لان عسف الملك كان قد ارهق نفوسهم وشل سواعدهم . اجل كانت معنوياتهم ضعيفة بينما كان العرب امة حربية لها من مجدها ثمانون عاماً ادخلوا فيها ارضاً الا فتحوها ولا التقوا بجيش الاكسروه (٢) ان جيش لدريق كان يتالف من رجال لا يعرفون الا خلاص ولا يعبأون ان ربح لدريق المعركة او خسرها انما كان موقفهم تجاهه موقف الرجل المتحيز الفرص فان انتصر ابلوا معه وان راوا منه ضعفا ولوا الادبار . ومع انهم كانوا عديدين فلم يكن سلاحهم بالجيد ولا تعودوا الهجوم كجسم واحد ولم تكن علاقة الجنود بالقادة مرضية

اما الجيش الاسلامي فكان يختلف تمام الاختلاف عن الجيش الاسبانيولى يهجم كالرجل الواحد وينظر الى الغنيمة نظر المشتاق الوله وكان عدد الفرسان يقارب نصف الجيش وقد اقبلوا وعليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمامم البيض

(١) وتسمى بالعربية « فحص شريش »

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ٨٠

وبأيديهم القسي العربية^(١) وكان لهم من يوليان المستامن اليهم في رجاله
أكبر مساعد للاستدلال على العورات وتجسس الاخبار

وفي التاسع عشر من شهر رموز (يوليو سنة ٧١١) تواجه الجيشان وقبل
ان تبتدى المعركة قام لدر بق خطيباً وكان على سرير بين دابتين وعليه مظلة
مكالة بالدر والياقوت والزبرجد ومن جملة قوله قد حان وقت الانتقام للامة
الاسبانيولية العظيمة وللایمان المقدس من هؤلاء العرب وذكروهم بايجاد
اجدادهم القوط وبقوة جيشهم العديد وبعذ ذلك امر بالمعركة ان تبتدى
ففي اليوم الاول كانت الوقعة عبارة عن مناوشات طفيفة لم تسفر
عن فوز احد الجيشين ولما اتى الليل خيم السلام عليهما الا انه لم يكد
ينبلج فجر اليوم الثاني الا وحمي وطيس القتال وكان الانتصار فيه للقوط
وذلك لكثرة عددهم . اما النتيجة فلم تكن فاصلة . وما كان العرب
ليجازفوا برجالهم مع قلتهم وكثرة اعدائهم ولذا ابتدأت معنوياتهم ان
تضعف لكن طارقا قام في اليوم الثالث خطيبا وسار بين الصفوف وبث
روح الاقدام وحضهم على الثبات اذ ان القائد في هذا الموقف عظيم
بشخصيته الساحرة وقوة بيانه كيف لا وهو امام جند كاد ان يولي
الادبار فثبت قوما كاد الفشل ان يدب في صفوفهم فتذهب ريحهم
ويفشلون . انه دعاهم الى اعلاء كلمة الله والاستشهاد وهذه لها غاية التأثير
لا سيما وحرارة الايمان لم نزل حديثة تضطرم نيرانها في صدورهم . وقد
جعل الموت امامهم كأسا شراباً هنة الهينات اذ قال لهم « ابدأ بنفسي »

فترك الانانية جانبا وجعل للتضحية المثال الاعلى وكان للغنيمة التأثير
الاكبر باستيلائه على قلوبهم .

فهاجمت العرب صفوف القوط وحملوا عليهم حملة صادقة وراجت
بعد ذلك اشاعة مقتل لذريق في الجيش الاسباني فتضعض . وفي هذه
الحال العصيبة التي كانت مستولية انجاز اوباس وولدا غيطشه اللذين كانا
رأسي الجناحين الايمن واليسر الى طارق لما اضمروا في سرهم من نيات
العرب نحو البلاد وعقدوا واياهم معااهدة تقضي بان يسلم اليهم اذا ظفر ضياع
ابيهم بالانداس كلها وكانت ثلاثة الاف ضيعة نفائس مختارة وهي التي
سميت بعد ذلك صفايا الملوك ^(١) فانهزمت اليمين والميسرة وثبت القلب
بعدهما قليلا وفيه لذريق الا انه تقهقر اخيراً وولى الادبار وتقدم المسلمون
بسرعة مطاردين فلول الجيش والمهاريين كي لا يتركوا لهم فرصة يجمعون
بها شتاتهم . وقد يظهر لنا جليا مما ذكرنا ان القتال الشديد دام نحواً
من ثلاثة ايام والبقية من الثمانية ايام قضيت في مطاردة الاعداء .

اجل ان معركة ١٩ تموز سنة ٧١١ جلست كل اسبانيا تحت رحمة
العرب ويصفها الاسبان بقولهم انها من الوقائع المبكية .

وكانت غنائم العرب جلها من الخيل وبذلك تم لهم التقدم السريع في
اسبانيا وتقدر قتلاهم بثلاثة الاف اذ ان الغنيمة قسمت على تسعة
آلاف وكان الجيش قبلا اثني عشر الفا . اما خسارة الاسبان فهي ثلاثة
اضعاف خسارة المسلمين وكان نصيب لذريق الفرق اذ ساخ الفرس
في طين وحماة .

(١) نفع الطيب الجزء الاول صفحة ١٢١

ويعتقد كوبه Coppe ان طارقا لم يحرق الاسطول الذي حمله الى الشواطىء الاسبانية اذ كيف يتسنى لقائد غريب مهاجم قد طلب الامداد من مرسى للظفر على اعدائه ان يحرق الاسطول الذي كان الواسطة الوحيدة لامداده و يقول ان الاسطول كان دوما حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي فيصعب الجزم في صحة رواية حرقه (١)

ولكن طارقا درس عقاية جنوده البربر فعرف انهم قوم يتنافسون في الرئاسة ويفشلون اذا جعل لهم من البحر اما لا يرقبونها عن كسب حين تشتعل الواقعة ويهاجمهم العدو بجيشه الكثير، وقد صدق ظنه اذ كاد الجيش ان يولي الادبار في اليومين الاولين من معركة كوادليتي لو لم يقف فيهم خطيبا ويستدرهم بالوعود.

اما قول Coppe « في ان الاسطول كان دوما حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي فهو اعتقاد وجيه يثبتته المقرري بقوله « ان موسى منذ وجه طارقا لوجهه اخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة الاف من المسلمين مدداً (٢) فنستنتج ان طارقا خرق السفن الاربع التي اقاته وليس الاسطول باجمعه . وقد ظل هذا دوما يخبر في عباب الزقاق حاملا الجنود والامداد والمؤن . ولما تسامع الناس من اهل بر العدو بالفتح على طارق بالاندلس وسعة الغنائم فيها اقبلوا من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٤٣ — ٢٤٤

(٢) نفع الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٠

من مركب ولحقوا به .

ومن ثم احتل طارق المدن القريبة منه مثل (شريش Xeres)
ومورون Moron وقرمونه ومدور واشبيلية (وقد صالحه اهلها على
الجزية) واستجه (وقد دافعت دفاعا مجيداً) .

وفيما طارق يجمع جيشه لاتمام الفتح اذ موسى يأمره بعدم التقدم
الى ان ياتيه بنفسه مع الامداد وينسب المؤرخون هذا لما جال في صدره
من الحسد نحو القائد الظافر . لكن طارقا عقد مجلس شوراه للنظر في
اوامر موسى فقرروا جميعهم متابعة الزحف مستنديين ان موسى كان
جاهلا حالة الجيش الاسباني وما آل اليه من التشتت وانهم بتأخرهم
يجعلون لفلول الجيوش الاسبانية فرصة سانحة للاتحاد ومناجزتهم . مركبة
شديدة ربما اتعبتهم وكان من اكبر المحرضين على ذلك بوليان وقد قال
لطارق أنت ذاهولاء ادلاء من اصحابي ففرق جيوشك معهم في جهات
في البلاد واعمدت الى طابطة العاصمة حيث معظمهم فاشغل القوم
عن النظر في امرهم والاجتماع الى اولي رآهم ^(١)

فقسم طارق جيوشه الى ثلاث فرق ^(٢) اسند قيادة الفرقة الاولى

منها الى مغيث الرومي ^(٣) ويقول ابن حيان انه رومي سبي بالمشرق
وهو صغير فادبه عبد الملك بن مروان مع طفله الوليد وقد نشأ مغيث
بدمشق وافصح بالعربية وتدرّب على الركوب وانخرط في سلك الجندية
فجاز منه النصيب الاوفر من التقدم حتى اسند اليه الفرقة الاولى لفتح

(١) الاحاطة في اخبار غرناطة تأليف الوزير لسان الدين الخطيب صفحة ١٦ - ١٧ .
(٢) الاحاطة في اخبار غرناطة صفحة ١٧ و (١١١) الجزء الاول صفحة ٢٨٨ .
(٣) فتح الطيب الجزء الثاني صفحة ٥٤ - ٥٥ .

قرطبة . وقد كان يعرف بشجاعته ومعرفته اساليب الحرب وخدمها .
اما الفرقة الثانية فقد اوكل اليها الزحف شرقا الى ملقا وكان يستلم
زمامها زيد بن قاصد السكسكي وهو تابعي اصله من مصر . وقد كانت
الفرقة الثالثة تابعة لزيد ايضا وهذه تقدمت نحو غرناطة عاصمة البيرة .
اما الجسم الاكبر من الجيش فزحف شمالا الى طليطلة العاصمة عن
طريق قرطبة . وكان موعد اجتماع الفرق الثلاث مع طارق بعد اتمام
ما وكل اليهم من الفتح في جان .
ورحل عن قرطبة عظماء اهلها الى طليطلة وبقي فيها اميرها مع
اربعمائة فارس من حماة فكم من مغيث حين وصل اليها بعدوة نهر شفندة
في غيضة فلما هجم الليل اقبل نحو المدينة بجنده وكانوا سبعمائة فارس
وارسلت السماء برذاذ اخفي دققة حوافر الخيل فمكثهم ذلك من عبور
نهر قرطبة ليلاً وقد غفل حرس السور فارتقاه بعض من جند مغيث
وقتلوهم فدخلوا المدينة وملكوها عنوة . فبادر حاكمها الى الفرار في
اصحابه وخرج الى كنيسة بغيري المدينة وتحصن بها فاقام مغيث على
محاصرتها ثلاثة اشهر الى ان عرف موضع الماء الذي يتناولونه فامر اهل
المعرفة بطلبه فقطعوه فايقنوا بالهلاك فدعاهم مغيث الى الجزية وهي قليلة
او الاسلام^(١) على ان يقبل في سلك الجندي كل من يعتنقه . منهم مع
اعطائه حصته من الغنائم فابوا عليه شروطه^(٢) ولذا او قد عليهم النار
فاحرقهم وسميت كنيسة القديس جورج الذي ثبتوا بها كنيسة المحرق^(٣)

(١) نفع الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٢٩

(٣) نفع الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣ Coppe الجزء الاول صفحة ٢٩٢

وقد جمع مغيث يهود قرطبة الى مدينتها وجعل لهم السلطة النافذة
لثقتهم بهم

واما من وجه الى مالقه ففتحوها ثم لحقوا بالجيش المتوجه الى
غرناطة فلم يلاقوا صعوبة في فتحها لان سكانها كان اكثرهم من اليهود
وقد استقبلوا جيش المسلمين استقبالا حسناً ولاكثره عددهم فيها دعيت
غرناطة اليهود (١)

وبعد ان فتح زيد غرناطه ذهب عن طريق جابن ليلتحق بطارق
ومن المهم ان نذكر ان المسلمين كانوا يضمون اليهود مع قطعة من المسلمين
الى القصبه التي يفتحونها الحفظها واذالم يجدوا يهوداً وفر واعدد المسلمين
لحفظ ما فتح وصار لهم ذلك سنة في كل بلد يفتحونه (٢)

وقد اتم طارق سيره الى طليطلة محاذيا الوادي الكبير وقد اختارها
القوطيون عاصمة لهم لتوسطها البلاد ومنعتها وهي مبنية على تلال
سبع وتطل على نهر التاج

وقد كان من المنتظر ان يناجز الاسبانيول العرب في طليطلة بعد
انخذاهم في وادي لكه اذ انها مجمع قواهم ولكن عظماءهم كان قد اسقط
في ايديهم وعمهم الخوف ولذلك لم يفكروا الا بالهرب فاعتصموا
بالجبال .

ولما لي طارق الفاها خالية لكنه اشترط على من بقي منهم تسليم
السلاح والخيول واذن لمن ود الرحيل عن المدينة بالمهاجرة على ان لا

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٩٤

(٢) نصح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣

ياخذ من امتعته شيئاً اما من عزم منهم على البقاء فقد حذفت له املاكه
 وحرته الدينية ودفن الجزية وقد طلب منهم ان لا يشيدوا كنائس
 جديدة دون استشارته ولم يسمح لهم بالمظاهرات الدينية اذ ربما انطوت
 على دنائس سياسية . اما نظامهم البلدية والقضائية فقد اقيمت كما هي (١)
 ولما بلغ موسى بن نصير ما صنع طارق بن زياد وما اتى حله من الفتح
 تهيأ للمسير الى الاندلس وكان ذلك بعد ان مكن قواه في موريتانيا ومهد
 طرق المواصلات بينه وبين مصر وسوريا وجمع جيشاً قويا للزحف
 به وكان دخول موسى الى اسبانيا في مارس او (ابريل) من سنة ٧١٢
 (رمضان سنة ٩٣) اي بعد مرور سنة من قدوم طارق الى الجبل الذي
 دعي باسمه . اما جيشه فكان يتالف من عشرة آلاف من الفرسان
 وثمانية آلاف من المشاة وقد نزل بالجزيرة الخضراء
 والحق يقال ان موسى بقدومه لم يفتح البلاد اذ ان طارقا كان قد
 بسط نفوذه عليها بل اكثر من الحماية ولذا نراه يقدم الى البلاد التي
 احتلها طارق قبله الا انه كان له الفضل في اخضاع اسبانيا الغربية
 والبورغال .

وبعد ان احتل الجزيرة الخضراء سار الى شدونه وشريش وقرمونه
 ودخى بعدها الى اشبيلية فحاصرها وهي اعظم مدائن الاندلس شأنها
 واعجبها بنيانا واكثرها آثارا وكانت العاصمة قبل ان دخل القوطيون
 اسبانيا الا انها ظلت مركز الرؤساء الرومانيين فحفظت بذلك لها المكانة

الدينية . ومما فاقت به على غير ها من نواحي الاندلس زراعة القطن
فانه يحمل منها الى جميع البلاد الاسبانية والمغرب وهي على شاطئ نهر
عظيم تسير فيه المراكب المثقلة يقال له الوادي الكبير ^(١) . فامتنت
اشهراً عليه ثم فتحها واكثر فيها من اليهود .

وبعد ان وطد النفوذ العربي في البلاد الغاضبة مما فتحه طارق سار
الى اسبانيا الغربية والبورتغال وكان في زحفه على هذه الجهات يعتمد على
فرسانه وقد احتل دون صعوبة Myrtilis و Assonoba و Sible
و Beza ^(٢) الى ان انتهى الى ماردة وكان اهلها قد صمموا على الاستماتة
في دفاعهم ولم يلاق العرب بعد ستوط قرطبة دفاعاً مجيداً كدفاعها .
وقد بنى ماردة اغسطس وفيها كثير من الآثار الرومانية منها قوس
راسان الذي دُعي بعد ذلك قوس سانت ياغو (يعقوب) وهيكل
مارس وديانا وملعب ماكسيمس والجسر الجميل البالغ من الطول نحواً
من ٢٥٠٠ قدم والمبني على ٨١ قنطرة وكانت تلقب برومية ^(٣) اسبانيا
لها حصون منيعة وارج عديدة واهلها ذومنة وبأس شديد هاجمهم
المسلمون مراراً الى ان اذعنوا . وذلك ان الجيش العربي المهاجم اظهر
لهم هربة فلحقوا به وكان الكمين العربي مترقباً لهم فاطبق عليهم
وارتد الجيش الذي اظهر الهرب وفتك بهم فتسكا ذريماً . ومما جعلهم

(١) راجع اشبيلية من كتاب معجم البلدان لابن عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي

(٢) راجع خريطة اسبانيا

(٣) Joppe الجزء الاول صفحة ٣١١

يخضعون الامداد التي قدمت موسى وعلى رأسها ابنة عبدالعزيز
والجوع الذي بدأ يفتك بهم . وقد اشترط عليهم موسى تسليم السلاح
والخيول وامتلاك اموال الخزينة العمومية والكنيسة والقنصلية يوم الكمين
والهاربين الى غاسقونيا . وامر ان يحول نصف عدد الكنائس الى
مساجد .

وكان اشهر من أُسر في هذه المدينة الملكة Exilona^(١) ارملة
رودريك «لدريك» وهي سيدة مغربية اسمها الحقيقي الياتا Elyata
تزوجت فيما بعد عبدالعزيز بن موسى امير الاندلس ويدعوها العرب
«ام عاصم» اما سقوط المدينة فكان في ١٠ تموز (يوليو) سنة ٧١٢
وبينا كان موسى يتقدم الى الامام ثارت اشبيلية وقتلت بعضا من
جند العرب فاقتصر منها عبدالعزيز وشدد التنكير عليها وبذلك حفظت
مؤخرة موسى من القلاقل ومن ثمة سار الى طليطلة فاستقبله طارق في
وجوه الناس الا ان موسى وبخه وعزله لعدم اطاعته او امره . ولم تكن
نتائج تلك السياسة التي سار عليها طارق مما تحمد عقباه اذ جعل بين
العرب والبربر فراغا واختلافات تمت بمكروب السيادة المتمكن من
العرب اصحاب الدولة . ولكن الخليفة امره بان يطلق سراجه اذ لا
يجوز في عرفه ان يُعمد سيف من سيوف الاسلام !

فاظهر الرضا عنه واقراءه على مقدمته وامره بالتقدم امامه في
جوشه فار تقي جبال Molina زاحفا الى سر قسطه وهي اعظم مدن

(١) جزء اول صفحة ١٦٠ راجع Coppe ايضا الجزء الاول صفحة ٣١٧

الشمال الشرقي من اسبانيا وقد اخذت اسمها من اوغسطس قيصر الذي
شيدها وهي مبنية على ضفاف الابر و تشعب منها طرق المواصلات
الكثيرة ، وبينما كان طارق يحاصرها احتل موسى سلامنكا واستوركا
Astorga وقد اتاها بعد ذلك منجداً طارقاً في حصاره فافتتحها
واصر موسى على طاب جزية كبيرة دعاها الاسبان جزية الدم
وبعد ان خضدا شوكتها تفرقت جيوشهما فاحتل موسى المقاطعة
الواقعة بين الابر والبيرنيه وتدعى كستلونيا Catalonia^(١) وبذلك
تم له التساط على لاردة Lerida وبرشلوته Barcelona و Gerona
و Huesca

اما طارق فاحتل طرطوشه Turtosa على الشاطيء الايسر
من الابر وبلنسية Valancia وشاطيته Xativa و Denia وقد
اوغلا في البلاد ولم يمرّ على موضع الا فتح عليهما وكان موسى يوثق
لناس ما عاهدهم عايه طارق وكان يود لو يقتحمه ربا عن طريق
الارض الكبيرة (فرنسا) حتى يتصل بالناس الى الشام لكن الخليفة
امر برجوعه فحال دون ذلك الامل^(٢)

وقد استخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس واقره
بمدينة اشبيلية وركب البحر وطارق معه (في ذي الحجة سنة ٩٥
واغسطس سنة ٧١٣) وكان معه من السبي ما يقارب الثلاثين الف

(١) راجع خريطة اسبانيا

(٢) نصح الطيب الجزء الاول صفحة ١٣٠ ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١١٧

راس (١) والمائدة المشهورة (٢) التي كان يحمل فوقها مصاحف الاناجيل
اذا برزت في ايام المناسك وهي مصوغة من خالص الذهب ومرصعة
بفاخر الدر والياقوت والزمرد وقد اصابها الفاتحون بطايطلة وكان يُظن
ان لها قوة معنوية كتابوت العهد عند اليهود

وضبط عبد العزيز الاندلس بعد قنول ابيه وسد ثغورها واتم
فتحها. وذلك انه سار الى مرسية Murcia الحصبة الجميلة وكان
يدعوها العرب تدمير نسبة الى القائد الذي وقف مدافعا عن البلاد
حين نزلوها وكان قد اشترك في معركة Guadalete الا انه هرب حين
رأى ان لا مناص لثوميه من الخذلان وقد ناوأ جنود المسلمين لكن
الهزيمة استمرت عليه في لورقا Lorca وغيرها من المدن. وكان تدمير
هذا في قليل من اصحابه لا يغنون شيئا فامر النساء بنشر الشعور
والظهور على الاسوار في مدينة اريوله Orihuela قصبها متشبهات
بالرجال وتصدر قدامهن باصحابه يغالط المسلمين في قوته فتعبوا اراسه
وعرضوا عليه الصلح واظهر الميل اليه واخذهم بالوفاء بعهده وادخلهم
المدينة وسلمت المقاطعة كلها من ويلات الحرب ومعرة الفاتحين
وصارت كلها صلحا ليس فيها عنوة (٣)

قد كتبت المعاهدة (بين عبد العزيز بن موسى وتدمير) بالعربية
واللاتينية وحفظت بتامها في مكتبة الاسكوريال Escorial بمدريد

(١) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١١٨

(٢) نفع الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٧

(٣) نفع الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٤

وهي تبين لنا التساهل الذي اظهره العرب ويقول المؤرخ غبون Gibbon انها محفوظة في الجزء الثاني صفحة ٦٤٠ — ٦٠٥ بالعربية واللاتينية من كتاب Bibliotheca, Arabico-Hispana

وهي بتدبير بالبسملة ومن ثمة تنص على ان لا يقاتل المسلمون تدمير ولا يسبوا نساء مملكته ولا يفصلوا زوجة عن زوجها او ولداً عن امه وان لا يعارضوهم في دينهم ولا يحرقوا معابدهم بشرط ان يسلم مدنه السبع ويظل تدمير عام لالعبد العزيز عليها وهي Alicant Valentola Orihuela Lorca Bejar, Vacasora Molo وان يدفع هو ومواطنوه ضريبة الاعناق وهي دينار على كل غني سنويا اما الفقير فنصف دينار وكان من الواجب ان يدفع اغنياؤهم اربعة مكاييل من القمح والشعير والمصير والحل والعسل والزيت وفقراؤهم نصف ذلك سنوياً وقد تم الاتفاق على هذه الشروط في الرابع من رجب سنة ٩٤ (٥ ابريل سنة ٧١٣)^(١) وقد وقع عليها اربعة من افاضل المسلمين كشهود على المتعاهدين وهم عثمان بن ابي عبده وحبيب بن ابي عبده وادريس بن ميسرة وابو القاسم الموصللي
حقاً ان هذه الشروط خفيفة الوطأة خصوصاً في مقاطعة مرسيه الملقبة بحنة اسبانيا الخصيبة . حيث ينبت الزرع دون نصب لجودة الارض وكرم السماء^(٢)

(١) E. Gibbon Decline and Fall of the Roman Empire الجزء الخامس

صفحة ٣٧٢ opp الجزء الاول صفحة ٣٣٠ الجزء الاول صفحة ٧٦ — ٧٥

(٢) يقول المثل الاسباني « القمح في اربولة أمطرت ام لم تمطر Coppe » صفحة ٣٣١

من الجزء الاول

وكان عبد العزيز من خير الولاة اذ هدا البلاد بتساهله وحلمه الا ان مدته لم تطل للنكبة التي انزلها الخليفة سليمان بن عبد الملك بايه واهله وذلك لما كان له من النفوذ في افر بقيه و الاندلس اذ استخلف على طابعه ومما يليها من المغرب ابنه عبد الملك و بافر بقيه عبد الله فصار جميع الاندلس والمغرب بيد اولاده. وقال آخرون ان موسى قدم على الوليد وان سليمان ولي العهد لما سمع بقرب موسى من دمشق وكان الوليد مريضاً امره بالتر بص رجاء ان يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم هذا على سليمان في اول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة فيستبشر الناس ويعظم مقام سليمان عندهم فابي موسى من ذلك وجد في السير حتى سلم الوليد الاخماس والمغانم فلم يمكث الوليد يسيراً بعد قدومه حتى توفي فحقدتها عليه سليمان واهله وانغرمه امو الا طائفة ودس الى اهل الاندلس بقتل ابنه فوثب الجند به بقيادة رجال سليمان واعدموه^(١) ومقتله من نوع الترا جيديا وكان له صدى مؤلم في الاندلس باجمعها

وقد مات موسى بن نصير وهو في منفاه بوادي القرى من افقر الناس يطلب الرحمة من الموكلين به ليخففوا عنه العذاب . وهكذا قضى القائد الذي بسط نفوذ الدولة في اسبانيا وافر بقيه ذليلاً مهاناً

ولم يكن افتتاح العرب اسبانيا من المصائب على اهلها مع كل ما تاتي به الحرب من الويلات . اجل كانت الفوضى ضاربة اطنابها عند ابتداء الفتح وقد احرق المسلمون بمض المدن واعدموا كثيراً من النبلاء

ولكن الحكومة العربية بعد ذلك وطدت اركانها واصلحت خطاها
واقرت السلام في الربوع وضربت بمصا من حديد كل من ارتكب
هذه المظالم وذلك ما جعل الاسبان يقبلون حكمهم دون تذمر او شكوى
وقد وجدوا فيه التساهل الذي طالما نشدوه اذ بقوا لهم شرائعهم وقوانينهم
وقضايتهم وعينوا عليهم حكاما من انفسهم يناظرون الضرائب التي وجب
دفعها للخزينة (١)

وقد ظل العبيد في جميع الاقطاعات التي اختصها العرب بانفسهم
واغلبها مما يخص الكنيسة والنبلاء والفارين الى الشمال وما افتتحوه عنوة
وكانوا يفلحونها و يعملون فيها ويعطون اسيادهم العرب اربعة اخماس
محصولاتها و ياخذون لانفسهم الخمس الباقي

اما اراضي الحكومة فكانت تؤلف الجزء الخامس من جميع المقاطعات
التي وضع المسلمون ايديهم عليها. وكان من يعمل فيها من العبيد
يدفعون للخزينة ثلث المحصولات فحسب و ياخذون لانفسهم الثلثين
الباقين. ولما كثر عدد المهاجرين من العرب الى اسبانيا صار العبيد
يدفعون الثلث لهؤلاء المهاجرين بدلا من الحكومة وذلك حسب ما
اقتضته ادارة الحكومة نفسها بتقسيمها لهم. وكان العبيد الذين يعمرون
الارضين ليبت مال المسلمين يعرفون بالاخماس واولادهم ببني الاخماس (٢)
واما سائر النصارى فكانت تتوقف حالتهم على المعاهدات التي
عقدوها مع العرب و كان اكثرها يحفظ لهم مصالحهم. فاهالي ماردة

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الثاني صفحة ٣٨

(٢) Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne.

Appendice, No.1

الذين بقوا في المدينة حفظت لهم جميع املاكهم كما اننا قبلنا الا انهم اجبروا على تسليم اموال الكنيسة . لكن تدهير او مرسية التي تضم كثيراً من المدن فلم يدفع مسيحيوها شيئاً البتة وقد اصابهم الجزية فحسب وهي مما وجب دفعة على جميع الذميين . وعلى العموم فقد حفظ المسيحيون جميع املاكهم واذن لهم بحق التصرف بها من بيع او شراء وهذا حق لم يتمتعوا به في ايام القوط

وكان عليهم ان يدفعوا ضريبة الاعناق السنوية وهي ثمانية واربعون درهما على الغني واربعة وعشرون درهما على متوسط الحال واثنان عشر درهما على العمال والصناع وكانت تدفع على اثني عشر قسطاً أي في اواخر كل شهر قري كان يسدد قسط . وقد اعفي من دفعها النساء والكهنة والضعفاء والاطفال والعبيد وذوو العاهات (١) وهذه الضريبة تسقط عن مسلم .

اما الخراج وهو عشرون بالمائة من محصولات الارضين فذا واجب دفعه على المسلمين والمسيحيين سواء ولا يسقط باسلام احد .

وما كانت الحكومة لتجبر احداً على اعتناق الاسلام بل قد خسرت خزينتها اموالاً طائلة لكثرة من دان به فسقطت عنه ضريبة الاعناق ومن حسنات الفتح العربي الثورة الفكرية الاجتماعية وهذه ذهبت بكثير من العادات البالية والتقاليد القديمة التي ناءت اسبانيا تحت اعبائها اجيالاً طويلة . فلنكم القوة التي كانت للنبلاء والكهنة كادت

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الاول صفحة ٤٠

تصبح كلا شيء اذ ان الحكومة وضعت يدها على ما كان لهم من
الاقطاعات الكثيرة وفرقتها بين اناس عديدين وبذلك قلت املاهم
وجعل للزراعة بدأ قوية كانت تعمل لغيرها فاصبحت تنتج لنفسها
ومن حسنة ايضاً سعادة العبيد وهم سواد الشعب الاعظم وقد
كانوا يعتقدون بعد ان يخدموا سنوات قليلة اذ ان من اعتق عبداً في
الاسلام كان يثاب ويعمله مبروراً مشكوراً
وقد اعتنق اكثرهم الاسلام وذلك لان المسيحية لم تكن متمكنة
منهم لتعلقهم بوثنيتهم القديمة ومعتقد المسيحية كان على شفاههم اكثر
منه في صدورهم (١)

اما وقد اتينا على حسنات الفتح فلنذكر الا ان سيئاته ان اردنا
العدل في حكمنا

ان الحكومة العربية صرحت علناً بحرية الاديان ولم تضغط على
احد من هذا القبيل ومع كل ذلك فالكنيسة المسيحية كان يرجع امرها
الى السلطة العربية فكهنها تعزلهم وتوليهم الحكومة ان شاءت وهكذا
المؤتمرات الدينية فما كانت لتعقد الا باذن منها

ولما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جعلوا لا يعاون بالمعاهدات التي
عقدوها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم اليها حين ابتداء الفتح
ففي قرطبة عقدت الحكومة معاهدة مع مسيحيها تنص على حفظ
كاتدرائية مار منصور Saint Vincent لهم ولكن حين كثرت

المهاجرة السورية الى قرطبة جعل العرب نصفها جامعا للمسلمين وهذا
طبعاً غير ما تنص عليه المعاهدة

وحين اراد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٤ اقتناء النصف الآخر
من الكاتدرائية اصر على ذلك ودفع لهم ثمنها مائة الف دينار واذن لهم
في تشييد كنائسهم المهدومة. ان عبد الرحمن لم يغب عنهم بل كان عادلاً في الثمن
الذي دفعه لكنه بعد ذلك حجز اموالهم اوطباس احد ابناء غيطشة بحجة
انها كثيرة على اسباني واحد وكان طارق قد عاهده على حفظها وثبت
ذلك الخليفة نفسه

أجل ان الفتح كان برداً وسلاماً على الامة الاسبانية اذ كفها
آلام الاضطهاد وخلصها من كابوس الموجات الجرمانية المؤلمة



الفصل الثاني

عبد الرحمن الداخل^(١)

حكم من (٧٥٦ - ٧٨٨ م)

ان اركان الدولة الاموية توطدت في اسبانيا وخفق علمها على ارجائها بمساعي القادة موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى الذين وحدوا التوى البربرية والعربية والقوطية واستفادوا من الفرص التي بها جعلوا عمى الوفاق متينة بما اظهره من الخنكة في تساهلهم مع اهل البلاد ومناصرتهم شعوبها المضطهدة ورفعهم مستوى افلاح والعبد والصانع الذين يكونون اكثرية السكان . لكن بعد مصرع عبد العزيز بن موسى ثارت في رؤوس زعمائها نشوة الرئاسة ورجعت العصية الحزبية فانقسموا الى يمينيين ومضريين وفهريين وازدادت نفرة البربر فاخذوا يشعرون بوطأة الارستقراطية العربية وشدتها وكان ابتداؤها السياسة العنيفة التي جرى عليها موسى يوم عزل طارقاً واهانته . ان البربر اخذوا يشعرون بوحدتهم القومية التي تجلت

(١) سمي بالداخل تمييزاً له عن عبد الرحمن الثاني المدعو بالاوسط وعن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر وهو اول من دخل الاندلس من العائلة المالكة الاموية

فما بعد باجلى مظاهرها الى اواخر الدولة الاموية بقرطبة (١٠٣١ م)
نعم ان اسباب الضعف كانت متمكنة حين التأسيس فبعد مركز
الخلافة عن الاندلس وتعدد من تسنم عرشها لامتد قصير وكثرة من
ساد من الولاة على القيروان اولئك الذين كان يرجع اليهم تعيين حاكم
الاندلس ، كل ذلك منع الدولة من ان تسير حسب سياسة واحدة بينة
عادية لا تغيير فيها .

وكان امر بني امية في المشرق قد ضعف وشغلوا عن قاصية الثغور
والممالك التي سادوها لعظم امر الخوارج وانتشار دعوة العباسيين التي
قامت على سيوف الاعاجم فبقي امر الاندلس فوضى لا نظام في
الربوع ولا سلام في الديار واستفحل امر الجند فيها فاخذوا يولون
ويعزلون ، يهون ويأمرون ولا من زعيم تلتف حوله الجماعة . وبتى
كان الجند قابضا على زمام الامور فالراحة معدومة والارهاب مسيغار
والفوضى ضاربة اطناها اذ لا تجري الامور في مجاريها الا متى كان
هناك حكومة مدنية لها قوانين اساسية ترتبطها فلا تجور على البلاد
القوى العسكرية .

فاتفق الجند على اقتسام الامارة بين المضرية واليمينية وادانتها سنة
لكل من الحزبين (١) فقدّم المضرية على انفسهم الزعيم يوسف بن
عبدالرحمن الفهري واستقر سنة ولايته بقرطبة غير انه حين انقضت مدته
استبد بالامر ولم يوف اليمينية لميعاد ادالتهم يوم اتوه واثقين بمكان

(١) ابن خلدون الجزء الرابع من كتاب البر وديوان المبتدأ والمبر . . . صفحة ١٢٠ القرى الجزء

عهدهم واتفاقهم فآظهوروا الاستسكانة وتربصوا الدوائر ليفتكوا به
وليتحدوا مع اعدائه عليه .

بينما كان الامويون في الغرب يتنازعون ويحصدون الرؤوس التي
تقف في طريقهم من اجل السلطة ، بينما كانت اسبانيا لا تزال تنمن من
ويلات المعارك التي يأتي بها كل فتح غالباً ويهلكها الجوع الذي سطا
عليها ، كان يضطهد هؤلاء الامويون في المشرق ففي سنة ٧٥٠ قتل
مروان الثاني آخر خلفائهم في مصر واسلمهم العباسيون للسيف والنطع
وكلوا لهم من المظالم والمذابات اشدها لكن متى تجاوز الانتقام حدوده
ضعف امره ولم يحن صاحبه ثمراً . وهكذا الما طلب بنو العباس الادويين
في كل صقع اتسح لكثير منهم الهرب والاستخفاء في الصحراء عند
القبائل البدوية لقرب الشام من اطرافها (٢)

ولما رأى بنو العباس ان لا سبيل الى اعدائهم الا بالحملة والمكر
امنهم السفاح وبذلك اصطاد ما يقارب السبعين منهم وقتلهم جميعاً غير
انه نجح من هذه المكيدة شاب اسمه عبدالرحمن لا يتجاوز العشرين
ربيعاً عيناه زرقاوان وشعره اشقر جميل (٣) هو حفيد الخليفة هشام . فهرب
ولم يزل يسير من مكان الى آخر حتى حل بقريية على الفرات ذات متجر
وغياض يريد افرقيية لكن ابو سلمى وزير السفاح العباسي بث في اثره
العيون وبعث بالامر المشددة الى جميع حكام الولايات بالقبض عليه .

(٢) Histoire des Musulmans d'Espagne, Dozy الجزء ١٠ ص ٢١٧/٢٩٨
History of the Conquest of Spain by the Arab-Moors, «٣»

Coppe الجزء الثاني صفحة ٧٩

وانه لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت لرمداضابه وبكر
ولده سليمان يلعب قدامه وهو يومئذ ابن اربع سنوات او نحوها اذ دخل
الصبي من باب البيت فازعاً با كيا مضطرباً فخرج ابوه ليعرف ما الخبر
فاذا بالروع قد نزل القرية والرايات السود منتشرة في اطرافها فهاله
الامر وسار مع اخ له حدث السن طالبا النجاة بعد ان امر اخواته ان
يلحقن به ومعهن بدر مولاة الى مكان مقتصده واهي الا ساعة حتى
اقلت الجود واحاطت الدار فلم تجد اثر له . ثم مضى ليبتاع ما يصلح
لسفره لكن عبد سوء امره عبدالرحمن باقتناء حواشيجه دل عليه فاشتد
في الهرب مع اخيه وسبق الجند اللاحق بهما الى الفرات وربما بنفسيهما
فيه والحيل تناديهما من الشاطيء ارجعاً لا بأس عليكما وكان عبدالرحمن
ماهرآ في السباحة الا ان اخاه قصر واصفى اليهم فناداه « تقتل يا اخي
الي ، الي ، اما اخوه فاغتر بامانهم وخشى الفرق فانقلب اليهم وهناك على
الضفة ضربوا عنقه وعبدالرحمن ينظر اليهم ، يرى دماء اخيه ويسمع
استغاثته ونفسه متألمة حزينة . انه حمل فيه شكلاً ملاءه خوفا ورعباً
فسار الى غيضة تواري فيها حتى انتطمع الطاب ^(١)

سار عبدالرحمن يطلب افریقیة فكان رفیق البدو في رحلاتهم
وسمیر الرعاة في طابهم الماء والكلاء لا ينمض له جفن الا قليلا حتى
وصل الى فلسطين حيث التقى ببدر مولاة ، فصر فبرقة وهنا تمكن
من الهرب بعد ان احتاط ابن حبيب حاكماً بالقبض عليه وكان هذا من

(١) المقرئ الجزء الثاني صفحة ٦٢ — ٦٣ نقلا عن الاخبار المجموعة صفة ٢٩٩-٣٠٢
من DOZI الجزء الاول . راجع الفصل السادس عشر من الجزء الاول ايضاً

صنائع بني امية غير انه خضع للنفوذ العباسي . فخلص الى بني رستم
ملوك تاهرت وقد اكرموا اكراما عظيما وتقلب على قبائل البربر الى ان
استقر عند اخواله بني نفزة الذين يسكنون بالقرب من سبتة
عبد الرحمن الشاب كانت تجول في صدره آمال كبيرة ويفكر
بمطامع عظيمة . ان كبرهته وشجاعته ومزايه اكسبته ثقة بنفسه
جملة يعتقد بانها خلق للعظام من الامور . وكان يتوسم فيه ذلك عمه
الاكبر مسامة . كانت نفسه تصبو الى العلاء والنفوذ ولكن عرش امية
كان قد دك دكا في الشرق وكان هناك في العدو الاسبانية عرش سالت
من اجله الدماء لم يتسنمه رجل ذو شخصية كبيرة لها في النفوس تأثيرها
فبعث بداراً مولاه الى المروانية بالاندلس وهم يؤلقون فرقتي دمشق
وقنشرين وعددهم يتراوح ما بين الاربعمائة والخمسمائة وقد وصف في
كتابه الى قادتهم الحال التعسة التي لاقاها الامويون في كل انحاء المملكة
العباسية والسنين الخمس التي قضاها وهو شريد طريد ويعرفهم مكاة
من الساطان وسعيه لئيله اذ كان الامر لجده هشام فهو حقيق بورائته
ويتلطف في ادخاله الى الاندلس ليعيش بين قومه وعشيرته ويعدهم بالمراتب
العالية والمناصب الفخمة ثم يشير اليهم بمن يامنونه ويرجو مناصرتهم
وجمع كلمة اليمينية حوله اولئك الذين لهم على المضربة المتنفذين احقاد .
وقد كان من المخلصين لامية ابو عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد
وجملة طيبة من الضباط والجنود فاجتمع نحو ثمانين^(١) من كبار المسلمين

«١» Coppe راجع ٨٥ ٩١ من الجزء الثاني . مؤتمر الثمانين صفحة ٨٩ History
of the Dominion of the Arabs in Spain الجزء الاول صفحة ٦٦٢ .

الشاميين وعتدوا مؤتمراً قرروا فيه ان يولوا زعامتهم رجلاً يدبر دفة البلاد بحزم كما يرجع الامن الى نصابه . انهم كانوا يتالمون من المظالم والاحن التي كانت تنزل بالبلاد على ايدي افراد قلائل دون ان ياخذ العدل مجراه لابعد الشاسع الذي كان يفصل الشرق عن اسبانيا . ان بعد المسافة والوقت الطويل يلونان الحقيقة الناصمة ويزينانها ولذا كانت احكام العدالة في حين المدم .

وبكلمة وجيزة كانت مطالبهم تنحصر في نقطتين اساسيتين وهما اولاً تأسيس حكومة يرأسها رجل قوي عادل يضع حداً لتخاذل الزعماء . ثانياً انفصال اسبانيا عن المملكة الاسلامية في الشرق لانه في وسعها ان تسير الى الامام بخيرات الوفيرة ومواردها الغنية (١) .

اما الرجل الطموح فكان بدر قد نشر له في الاندلس ذكراً وبث له دعوة (٢) بين المرالي المروانيين فقرروا ارسال وفد على راسه تمام ابن علقمة الى افريقيا ليحمله اليهم فركب عبد الرحمن البحر من مغيلة ونزل في المنكب Almunezar حيث استقبله القائندان ابو عثمان وخالد وذلك في مايو سنة ٧٥٦ وكانا قد هيجا احقاد اهل اليمن على مصر فوجدا فيهم ارضاً خصبة للانتقام اذ اوغرت صدورهم باحقادهم المتأصلة فيهم .

وقد سرت في الجيش دعوته وسارع عدد كبير الى البدار لعبد الرحمن وتنادوا بشعاره واغلبهم من اليمنيين وبعض من قبائل البربر الذين

(١) Coppe الجزء الثاني صفحة ٩٠ Conde الجزء الاول ١٦٨

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢١

اتوا اليه من زناته ومكناسه فشرع بالمسير نحو قرطبة .

ان جند يوسف كان كتلة واحدة من العرب الذين رضوا عن سياسته لعدم تشاخصه عليهم ومشاركته اياهم في استقلالهم لكبر سنه وضعفه الا انهم كانوا متخاذلين بعضهم مع بعض تاكل الضغينة صدورهم ولذا صعب ان يقاوموا مطامع الشاب عبدالرحمن الطموح فسار الى مقاطعة ريه Regis حيث انضمت اليه فرقة ارشيدوناو من ثمة اتى شيدونا مقر فرقة فلسطين فاشبيلية حيث استقبلته فرقة حمص واليمانية بقيادة ابن الصباح . اجل لقد هرعت اليه قبائل سورية ومصر لتقاتل تحت لوائه كما ان مدنا كثيرة ارسلت اليه شعراءها وفتحت له ابوابها لما كان يؤمله اهل البلاد من السلام والرخاء ايام دولته . بعد ان توالى المجاعة قبل ذلك ست سنين اورثت الاندلس ضعفا (١) ولما علم يوسف بقدم ابن معاوية جمع جموعه من ماردة وطليلة وبلنسية و اشار عليه الصميل بمهاجمته قبل ان يكثر جنده وتصلح حاله ان امده بالوقت انكافي غير انه صمم على الذهاب الى قرطبة اولا لانها مركز الذخائر وانثون وحين وصل اليها كان ابن معاوية قد دخل اشبيلية واتجه نحو قرطبة ايضا للسبب نفسه محتذيا الضفة اليمنى من الوادي الكبير الى ان وصل الصحراء الصارة غربي قرطبة وهناك تواجه الجيشان لا يفصل بينهما غير الوادي الكبير .

وقد كان كل من الاميرين يسمي للاتصاف جهده فيوسف ان

خذل كانت الضربة قاضية على اماله وامانيه. اذ ذلك يجعل الثوار في الشمال اقوياء الشكيمة عدا عن الثقة التي يخسرها وهي من اهم العوامل للنجاح. اما عبد الرحمن فان قلب له الدهر ظهر المجن رجع الى حاله الاولى شريداً طريداً لا حزب يعضده ولا ذخيرة يعتمد عليها ولذا جعل يتخابران ويتراسلان ليخدع كل منهما الآخر. فعرض يوسف على عبد الرحمن يد ابنته (١) واملاك جده هشام في الاندلس وقد ظهر الاخير الرضا عن الشروط واحتمل بنقل جنوده الى الضفة الثانية لكي لا يفصل بينهما بعد ذلك فاصل وتأكيداً لذلك فقد طلب منه ان يمدد بالمؤن كاللحوم وغيرها ففعل ووقع يوسف في احوالة عبد الرحمن معتقداً انه قد ارجع الامور الى مجاريها دون ان تهرق الدماء لكنه لم يكذب ينزغ فجر اليوم التالي ١٤ مايو والا واجبره عبد الرحمن على قبول معركة فاصلة يناجزه اياها فهزمت فرسانه الجناح الايمن والقلب وثبت الجناح الايسر من جند يوسف بعد ذلك قليلاً.

ان معركة صحراء الصارة جعلت عبد الرحمن سيد قرطبة ولسكنها لم تجعله امير اسبانيا قاطبة لان يوسف التجأ الى طليطلة واتحد مع الصميل الذي قاد فرقة جاين واسترجعا العاصمة حين اخلاها ابن معاوية لمازلتهم ثانياً لكن كان قد فشل امرهما فطلب الصلح بشرط ان تحفظ لهما املاكهما فقبل عبد الرحمن ما عرضاه عليه واخذ ابني يوسف رهينتين عنده وحين رجع عبد الرحمن الى قرطبة رافقه يوسف

والصميل وبذلك اعترفت به اسبانيا اميراً لها (يوليو سنة ٧٥٦)^(١)
لكن النبلاء الفهريين والهاشميين والقرشيين والبلديين^(٢)
ممن ضعفت سلطتهم واذلتهم السيادة الجديدة جعلوا ينفخون في بوق
القوضى ويشجعون يوسف على العصيان فهرب الى ماردة ونكث
عهده واجتمع اليه عشرون الفا من اهل الشتات فمطم شانه وخرج
لمحاصرة اشيلية غير ان حاكمها عبد الملك بن عمر بن مروان كسره
وشنت شملة واحتز راسه بالقرب من طليطلة ومن ثمة قتل عبد الرحمن
ولده ابا زيد

وحكم على ابي الاسود ابنه الاخر بالسجن المؤبد . ومما يذكر ان
الصميل لم يشترك في الثورة ومع ذلك فقد اعتلته عبد الرحمن
واوعز بخنقه

بينما كان ابن معاوية يوطد نفوذه في الغرب ويهتم بفصل الاندلس
عن سلطة الخلافة وجعل قرطبة بلدا وسيما عظيم الشأن كان الخليفة
ابو جعفر المنصور العباسي (٧٤٥ - ٧٧٥) يخاف ان تراحم الاندلس
سلطانه ولذا امر والي القيروان العلاء بن المغيث اليحصبي ان ينزل
بالاسطول الشاطيء الغربي من اسبانيا ليعين الثائرين واكثرهم من
اصحاب المطامع من فل جيوش يوسف الفهري والبربر وان يعلن ان

(١) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٥٧

(٢) البلديون هم الذين قدموا الاندلس من العرب قبل الشاميين
والداخلون بعد ذلك على موسى بن نصير وغيرهم ممن اتى مع بلج بن بشر القشيري
يسمون بالشاميين - الاحاطة في اخبار غرناطة للوزير لسان الدين الخطيب صفحة ١٧

خليفة رسول الله واحد وجبت الطاعة له . وبعد ان نزلها ثار بياجته
(٧٦٣ م) ودعا اهلها ومن حولهم فاستجاب له الفهريون وحاصروا
عبد الرحمن بقرمونه *C. nona* لكنه هاجمهم فهزمهم وقتل من دعاة
العباسيين ما ينيف على سبعة آلاف وارسل رؤوس كثيرة منهم الى مكة
ايام موسم الحج . ولما نمي الى المنصور ما حل بالمغيث وجنده صرخ بالحمد
لله الذي بيننا وبينه البحر (١)

ان اهمية هذا الانتصار كبيرة اذ جعلت العباسيين ينظروا الى الاندلس
بعين الرهبة والنظير الى النظير وفي ذلك ما فيه من اعترافهم باستقلال
الاندلس عن المملكة العباسية في المشرق وان لم يعترفوا بذلك رسميا
وقد كان نجاح عبدالرحمن يرجع الى سببين اولهما تفرق كلمة هؤلاء
الزعماء وعدم اشتراكهم يدا واحدة من اجل مقصد واحد وثانيهما
سياسة عبد الرحمن الرشيدة الصائبة وحر كته المتواصلة وعقابه الشديد
فانه حين ثار ابن الصباح زعيم الثميين طالبا ان يكون الامر لمشيرته
فتك به في قصره بقرطبة بعد ان وبخه . يدلنا على ما رب ابن الصباح
هذا قوله بعد الانتصار في معركة الصارة وهو يامعشر يمن هل لكم الى
فتحين في يوم . قد فرغنا من يوسف وصميل فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن
معاوية فيصير الامر لنا ، تقدم رجلا منا ونحل عنه المضرية (٢) فتدارك
عبد الرحمن امر بنفوذه وانسرها بنفسه الى ان اغتاله

(١) المقرئ الجزء الثاني صفحة ٦٧ Doz. الجزء الاول صفحة ٣٦٧ col الجزء الاول
صفحة ٣٩٩ — ٤٠٠

(٢) المقرئ الجزء الثاني صفحة ٦٦ Doz. الجزء الاول صفحة ٣٧٠ ترى خبر ابن الصباح

لم يكدا الامير الشاب يدراً ثورة التميميين حتى قام البربر بقيادة احد
معلمي الصبيان المسمى شاقية ويدعوه ابن خلدون شقنا (١) يضربون
في البلاد القوضى وقد ادعى انه من نسل الحسين بن فاطمه وتلقب
بعبدالله بن محمد وكان مركزه بين التاج والسكوا ادايايا Guadiana انه
في اول امره نجح نجح احا باهرا ومما يذكرا انه احتل ماردة وكوريا
وسنتبريا Meddeliu, Coria, Sontebria وكسر الميوش التي نازلتها
لاديبه واخذاءه. اما حصنه الحصين فكانت الجبال اذ هي ملجأه
حين حاول عبدالرحمن مناجزته وقد ظلت ثورة البربر هذه مشتتة نحو
من عشر سنين ولم تخمد الا بقتل شاقية غيلة قتله احد رجاله
ان الثورات التي قضى عبدالرحمن معظم عمره في اخمادها هي
على انواع ثلاثة النوع الاول ينحصر في القلاقل التي حدثها حزب يوسف
واشياعه والثاني في المطامع والمصالح التي كانت تخص بزعماء الاحزاب
والقبائل والثالث وهو النوع الغالب في الدعوة للخليفة العباسي وكانت اشدها
خطراً. ومن هذا القبيل الاخير المعاهدة التي قضت على سليمان العربي
حاكم برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الملقب بالصقلي وابي الاسود
ابن يوسف الذي تم له الفرار من السجن ان يتحدوا ويطلبوا مساعدة
شارلمان الكبير وذلك انهم ذهبوا في سنة ٧٧٧م الى بادربون
Paderborn (٢) وعقدوا المعاهدة الدفاعية الهجومية ضد عبدالرحمن

(١) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢٣

(٢) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٧ وClerc الجزء الثاني صفحة ١٢١ وScott

الجزء الاول صفحة ٤٠٣

وقد اعلموا الطاعة للخليفة العباسي حتى ان الصقلي حمل رايات المسودة
وان اضمروا ما ينزعون اليه حقيقة من حب الاستقلال
وكان شارلمان هذا برطوراً للمملكة التي امتد سلطانها على فرنسا
والمانيا وايطاليا وهو من العائلة (الكارلوفنجية) *Carlovingia* وان بن *Pippin*
وحفيد شارل مارتل . وجل ما يرمى اليه ان يجعل تحت نفوذه المملكة
الرومانية فغزا بين سنة ٩٦٩ عام و٧٧٨ ا كويتانيا وحمل حملات شديدة
على السكسون واللمبارديين لكنه كان ينظر الى اسبانيا نظر المتحيز
الفرص حتى لا يجعل من العرب عدواً لدوداً يهدد امبراطوريته
ويتخطى البيرونيه كما فعلوا ايام جده شارل مارتل لاسيما والشعوب التي
تتألف منها مملكته كالمثال السكسون والهون والسلاف واللمبارديين
اقوام شديده المراس لا يخضعون الا لليد القوية الشديدة وذلك مما لا
يتسنى له ان لم يؤمن حدوده الجنوبية واعني بها البيرونية . على انه كان
هناك ايضا عامل آخر دفعه على التعاقد مع الثأرين وهو حفظ النصرانية
في اوربا من دين جديد بدأت طلائعُه تسري في اسبانيا ^(١) ولنا صمم
على ان يجعل قسما من النافار وكاتلونيا والارغون حداً اسبانياً *Spanish*
March او دويلات حرة يحكمها اصداقؤه الثأرون برعايته .
ففي ربيع سنة ٧٧٨ اخترق شارلمان البيرونية عن طريق المضائق
التي يطلق عليها اسم *Roncesvalles* وقد ظل زاحفا الى ان اتى
بامبلونة فاحتلها دون مقاومة ولكنه لم يكديعمل الى سرقسطة بجوشه

(١) *Coppe* الجزء الثاني صفحة ١٢٣ — ١٢٤ *Scott* الجزء الاول صفحته

الا واقفل المسلمون بقيادة حسين بن يحيى ابواب المدينة (١) وهي مركز
 حربي كبير اذ منها تتشعب طرق المواصلات الى الانحاء المختلفة فبعد
 الرحمن كان ينظر اليها كجزء متمم لمملكته الاسبانية وشارلمان يرى فيها
 المحطة التي يهدد بها اسبانيا ويضربها. لكنه لم يكده يحاصرها حتى وافته
 الاخبار بثورة السكسون يقودهم وتكند Wiittekind (٢) وتقدمهم
 الى Dentz تجاه قولون فاجبر على التقهقر من البرو الى الرين بحال
 تعسة والبشكنس Basques كانوا قد كمنوا له في الحراج والمنعطفات
 الصخرية وهاجموه فافنوا مؤخرة جيشه عن بكرة ابها وكان يقودها
 رولاند. وممن حمل ايضا على جيشه غاسقون وفرنسا واسبانيا وجند بلاي
 Pelayo القائد الذي اسس بشرذمته الصغيرة في ضواحي Covadong
 القوة الاسبانية التي استردت من العرب الاندلس وطردتهم منها فيما
 بعد. وكانوا يرمونهم بالصخور والحجار الضخمة ويقول كوبه Coppel (٣)
 ان بعضا من القوى العربية ساعدت على هلاكهم.

ان اسم رولاند خالد لما صيغ فيه من جميل الشعر والخيال في
 بطون الكتب الادبية الاوربية ولا شبهة ان اخباره فيها شيء من
 الغلو الوصفي الروائي مما لا يقبله التاريخ.

وكان عبدالرحمن يشاهد عن بعد تمثيل المأساه التي اتى بها شارلمان
 الا انه سار اخيراً الى سرقسطه واخضعها وقتل الحسين بن يحيى الذي

(١) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٩
 (٢) Huart Histoire des Arabes الجزء الثاني صفحة ١٤٧ Dozy الجزء الاول
 صفحته ٣٧٩ (٣) Doz. صفحة ١٣٥ - ١٣٦ الجزء الثاني

حدثته نفسه بالوثوب اما الثأرون فقد اختلفوا بعضهم مع بعض ففتك
ابن العربي بالصفلي كما ان الاول مات مقتولا في جامع سرقسطه.

ونتيجة هذه الحملة ان شارلمان اسس التخم الاسباني الذي تاق
نفسه اليه وكان يضم البلاد الواقعة على جاني البيرنيه وهي تقسم الى
مقاطعتين كبيرتين غاسقونيا وسبتمانيا Septemanie

ولما كانت فوضى الاحزاب قد تقاقم ضررها صمم على اخفائها
واضعاف سلطتها ونفوذها فاحسن الى العوام ودعا الموالي وجمعهم حوله
واتخذ المالك واعتضد بالبربر فاحسن لمن وفده عليه من افريقية احسانا
كبيراً وجعل منهم جيشاً يتراوح بين الاربعين الفا والمائة الف (١) حين
الحاجة الشديدة. وكان اخلاص هذا الجيش شخصي اكثر منه قومي
لانه صنعة عبد الرحمن فباسمه كان الجند يدافع لا باسم البلاد وظل مدة
ثلاثين عاماً وهو يحاول اصلاح اسبانيا وجمع كلمتها داخلياً والاعتراف
بقوتها في الخارج فنجح وثبت امام جلين خضع لسلطانها العالم المعروف
يومذاك وهما شارلمان وابو جعفر المنصور. واسس مملكة مطلقة قسمها
الى ست مقاطعات يحكم كلا منها امير عسكري وكان يعضده في اموره
القضاة والولاة ويرسلون تقاريرهم الى الديوان بقرطبة (٢)

(١) المقرئ الجزء الثاني صفحة ٦٧ Dozy الجزء الاول صفحة ٣٨٨ opp الجزء
الثاني صفحة ١٥٢

(٢) Scott الجزء الاول صفحة ٤١٠

لقد صرح دوزي وكوبه والمقرئ وسكوت ان جيش عبد الرحمن كان نحواً من اربعين الفا
وزيد على ذلك المقرئ وكوبه انه كان يجاوز المائة الف احياناً وهذا طبعاً ليام الحروب

اما البريد فقد جعل له محطات وفرسانا تختص به وسار شوطا
 جليلا في عمران قرطبة فبنى اسوارها وشيد رياضها على الطريقة الدمشقية
 واصلح طرقات المواصلات الرومانية وبنى داراً لضرب النقود . واختط
 مدينة الرصافة على شمالها وهي على طراز رصافة الشام التي كانت ملكا
 لجده هشام وسمها باسمها تشبيها بها ^(١) واحاطها بالجنان وزرع فيها طيب
 الشجر كالشمس والرمان والنخيل ^(٢) . وكان بلاطه على نسق بلاط
 لدريق في الابهة . وقد شعر بوجوب بناء مسجد جامع في قرطبة ليحول
 انظار مسلمي اسبانيا عن الاراضي المقدسة في الشرق فلا تؤثر فيهم
 روح الثورة والنوضى التي كان يبثها اهل الدعوة العباسية ايام مواسم
 الحج في الحجاز فابتاع الكاتدرائية من مسيحي قرطبة بمائة الف

(١) انظر تحت كلمة رصافة ياقوت الحموي معجم البلدان

(٢) ومن جميل شعره يصف نخلة في الرصافة قوله :

تبات بارض الغرب عن بلد النخل	تبت لنا وسط الرصافة نخلة
وطول اكتثنائي عن بني وعن اهلي	فقلت شديهي في التغرب والنوى
فثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي	نشأت بارض انت فيها غربية
يصح ويستمرى المساكين بالوبل	سقتك غوادى المزن في المنتأى الذى

المقرى الجزء الثانى صفحة ٧٦

ومن نظمه ما كتب به الى اخته بالشام يتشوق الى معاهاها قوله :

اقر منى بعض السلام لبعضى	ايها الركب الميمم ارضى
وفؤادى ومالكيه بارض	ان جسمى كما تراه بارض
وطوى البين عن جفونى غمضى	قدر البين بيننا فافترقنا
فمسي باجماعنا سوف يقضى	قد قضى الدهر بالفراق علينا

المعجب في تلخيص اخبار المغرب الطبعة الجمالية سنة ١٩١٤ ص ١٠٠ المقرى ج ٢ صفح ٦٨ و ٧٦

ذيثار وحوها الى مسجد ضاهى حسنه المسجد الحرام والمسجد الاقصى^(١)
وكان عبد الرحمن يلقب بالامير وعليه جرى بنوه بعده فلم يدع
احد منهم بامير المؤمنين حتى كان عبد الرحمن الناصر فتسمى بالخلافة
وتوارث ذلك بنوه واحدا بعد واحد^(٢). انه لم يقدم عليها وهو ابن
الخلقاء نظراً للحال الشديدة في اسبانيا التي كانت تهدده دوماً بعواصف
الهباج وبراكين الثورة. وكيف به اذا ادعاها فانه ولا شك يجعل للزعماء
اصحاب النفوذ عذرا في العصيان. وقد اهملها ايضا تادبا مع الخلافة بمقر
الاسلام سيما والخلافة العباسية موطاة الاركان قد اعترف بها الاسلام
باجمعهم كما وان خيفة رسول الله واحد لا اثنان. يؤكد لنا ذلك قول
المقري ان الناصر بعد ذلك لم يتسم بها « الا حين التاث امر الخلافة
بالمشرق وامتد موالى الترك على بني العباس وبلغه ان الخليفة المقتدر
قتله مؤنس المظفر مولاه،^(٣)

ان عبد الرحمن زرع جرثومة العلم الطيبة في الاندلس فاسس
المدارس التي كان يعلم بها الفقه والشريعة والطب والطبيعات والرياضيات
والادب والشعر وبنى المستشفيات قرب المساجد ومن ذلك الحين
اخذت الفنون الجميلة والعلوم والآداب تزدهر وتزداد الى ان اصبحت
اسبانيا من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر قلب المدينة في العالم^(٤)

(١) Scott الجزء الاول صفحة ٤

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ٢٢

(٣) المقري الجزء الاول صفحة ١٦٥

(٤) Coppe الجزء الاول صفحة ١٦٢

عبد الرحمن الطريدي اسبانيا فوجد ان لامة اسبانية فيها ذات
عادات واحدة وتقاليدها واحدة واخلاق واحدة بل كان هناك خبايط
من الامم كالرومان والاسبانيول والقوط والنورمانديين والعرب
والبربر لا جامعة قومية تجمعهم ولا مصلحة مشتركة تدمجهم ولا عقلية
واحدة تسيرهم فكان جل ما رمى اليه ان يجعل منهم كتلة واحدة
ففضى زهرة شيبته في قمع الثورات واعدام الزعماء . ولقد كلفه ذلك
دماء غزيرة فكان ظالما جبارا منتقما لا يرحم . ان لم يقتل خصمه في
ساحة القتال قتله سرا في سبيل هذه الغاية . وقد فتك بكثير ممن اعتمد
عليهم في تشييد دولته فنفى بدرا مولاه وحجز املاكه وبعضا ممن
وفدوا عليه من اهله وهؤلاء من الذين اضجعهم ابن معاوية في مهاد
الامن والنعمة فنازعوه . واكثر جموع حزبه الاموي واستقدمهم اليه
من الشام ومصر والمغرب .

ولقبه المنصور العباسي « بصقر قريش » لانه عبر البحر وقطع
القمر ودخل بلدا اعجميا مفردا فصر الامصار وجند الاجناد ودون
الدواوين واقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وعبد الرحمن منفرد
بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه (١) .

ان عبد الرحمن برهن على انه رجل الحكومة الداهية ونظير شارلمان
والمنصور (٢) . انه لم يكن اينتقم انتقاما اعمى حين استتبت له الامور

(١) العقد الفريد جزء ٣ صفحة ٢٠٢ لابن عبد ربه . الطبعة الجمالية ١٩١٣ ابن
خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢٢ تجد الفكرة ذاتها

(٢) Encyclopedia of Islam الجزء الاول صفحة ٥٣

ولم تكن عظامته وراثية بل مكتسبة فهو رجل عصامي بنى عرشا من
لا شيء وقد منع فوضى الاحزاب بعد وفاته اذ اخذ البيعة لابنه هشام
ثالث ابنائه من مجلس شورا و حجـابه وولاته وبذلك اسس عائلة
ملكية تدير دفة الاندلس بدلا من ان يتنازع على امارتها الزعماء والاجناد
ومما يذكر ان عبد الرحمن جعل من امته كتلة واحدة بينما لم يضاهاه
شارلمان في لم شعث مملكته الوسيعة .

كان عبد الرحمن يلبس البياض ويعتم بعمامة بيضاء يسمع للامة
ظلامتهم ويخطب بالناس يوم الجمعة . انه كان عظيما كسياسي وجندي
وكمدن وقد دعاه رودريك الطليطلي بالمادل^(١) .

الفصل الثالث

خلفاء عبد الرحمن الداخل

اعتنق الاسلام كثيرون من اهل الاندلس وجلهم من الموالي
والفلاحين وكانوا على ما يظهر في راحة وهناء ، لا يفتاون عن العمل ،
يقتصدون فلا يبذرون ما اوتوه من الاجرة ولا يفترون على انفسهم
لسكن كانت تلعب بهم ريح الثورة فينقادون الى رجال الدين كلما نفخ
في بوق الفوضى احد منهم فيجرون على البلاد الويل الشديد .

لم يسمح عبد الرحمن الداخل لاحد من الفتهاء ان يعارضه في
سياسته الداخلية او الخارجية ولا ان يشاركه في سلطته شريك او متنفذ
فلما افضى الملك الى هشام ولي عهده صارت لرجال الدين الكلمة
المسموعة في الدولة . وكان هشام تقيا ورعا حلما كريما فحينما تنبأ له احد
الفلكيين انه لن يعمر طويلا زهد في الدنيا ورغب في اعمال البر ولبس
الثياب البسيطة العادية وصار من عادته ان يسير في شوارع العاصمة
ليلا متحريرا للعدل مختلطا مع افراد الشعب ليحبر عثرة الكريم المحتاج
وكان يخرج من قصره في ليالي الشتاء المظلمة المطرة ومعه صرر الدراهم
يتحرى بها المساكين وذوي البيوتات من الضعفاء والمرضى والمساكين^(١)

(١) المعجب في تلخيص اخبار المغرب للمراكشي ، الطبعة الاولى بمصر سنة ١٩١٤

ص ١٠ العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٢٠٢ الطبعة الاولى لجمالية بمصر ١٩١٣

فبعزيمهم ويخفف عنهم وقد تمادى في عدله حتى اخذت رعيته تسهجا
مهمجه وتقوا اثره وذهب بسيرته مذهب عمر بن عبدالعزيز^(١) فارسل
بفئة من ثقافته الى المقاطعات والكور يسألون عن سير عماله ويخبرونه
بجرائمها وان انتهى اليه ان احدهم يظلم ويسوم اهل البلاد عسفا كف
يده وقاصبه .

تأسس المذهب المالكي في هذه الآونة في المشرق لصاحبه مالك
ابن انس المدني^(٢) وكان يكره هذا سيادة العباسيين الذين اتهموه
بمساعدة دعاة العلوية فجلدوه وسجنوه فاتجه نظره الى الدولة الاموية
في اسبانيا وقد احب الامير هشاما حبا جما لما اتصف به من الخصال
الحميدة والخلال الشريفة فصرح انه الامير المسلم الوحيد الذي تليق به
الخلافة لانه القادر على احتمال اعباء مسؤوليتها العظيمة دون غيره من
الامراء . ولما كان تلاميذ مالك مقربين من هشام اخبروه بما له عند
استاذهم من الاحترام فبذل جهده في نشر الدعوة المالكية وبعث البعث
الى المدينة للدرس والتحصيل^(٣) كل هذا يتبين لنا جليا واضحا حينما
تلمس حقيقة المناظرة السياسية بين الدولتين الفتيتين في الشرق والغرب
حينما توفي هشام سنة ٧٩٦ كان لمذهب مالك شان كبير في اسبانيا

(١) المقرئ ج ١ ص ١٥٨ الطبعة الازهرية المصرية ١٣٠٢ هـ . راجع سيرة هشام
الاول في Dozy ج ٥٥ - ٥٦ Sord. ج ١ ص ٢٣٦
(٢) راجع تاريخ حياته في كتاب ابن خلكان الموسوم بـ (وفيات الاعيان ج ١ ص ٦٢٥
(٣) Dozy ج ٢ ص ٥٧

اذ ضم بين جناحيه رجالا اذ كياء وشبانا طموحين متطلعين الى العلاء
ومناصب الرفعة 'مثال يحيى بن يحيى الليثي' (١) راوي الموطا وهو بربري
من مصمودة شديد الاصغاء لاستاذه مالك فلقبه (بعقل اسبانيا)
وطارت له في قرطبة شهرة ذائعة .

اما الحكم بن هشام الذي تولى الملك بعد ابيه فلم يكن طاغيا كما
يلقبه بعض مؤرخي العرب فاحترم الدين واحب اهله غير انه لم يخلق
ليعيش عيشة النساك والزاهدين بل اولع بالصيد وشرب الخمر في
صباه (٢) وما غض الطرف عن اي فقيه اراد ان يتداخل في الامور
الادارية فباشر الاعمال بنفسه فتسلح الفقهاء بفعل مذهب مالك
في العامة وعارضوه لان الحكومة اعترفت فتاوي مالك واهل المدينة
المتاوي الرسمية بعد ان كانت للاوزاعيين . وهاك مثلا من امثلتهم
في دعواهم له ليرجع الى الله « ايها المسرف المتماذي في طغيانه المصر على
كبره المتهاون بامر ربه افق من سكرتك وتنبه من غفلتك » (٣) . وما
نجا هذا النجو . انهم بعملهم هذا لم يحسبوا حسابا للدهاء التي ربما تسفك
من اجل اطماعهم المسدولة عليها جلايب التقوى فهاجوا الشعب
والعامة عليه — واغلبهم من المسيحيين الذين دانوا بالاسلام وكانوا
اشد تعصبا له من المسلمين انفسهم — فرجموه بالحجارة يوما وهو سائر
في اسواق العاصمة غير ان الحرس فتحوا له طريقا بسيوفهم وكان

(١) راجع شيئا عن الليثي في المقرئ ج ١ ص ٣٢٧ فابعد

(٢) Dazy ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩

(٣) المراكشي ص ١١

ذلك سنة ٨٠٥ .

وتأمر يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار الملقب بفتية الاندلس
وظالوت وغيرهم من رجال الدين والارستقراطية العربية والنبلاء
وقرر واخلع الحكم فبايعوا احد ذوي قرابته المدعو — ابن الشماس —
فخاضهم ووشى بهم فهرب منهم الرؤساء الذين ذكرنا الى طليطلة الثائرة
الا ان اثنين وسبعين من المتأمرين وقعوا تحت طائلة القانون فصلبوا
جميعا (١).

سار الحكم في السنة التي تلت هذا الحادث (٨٠٦) ليخضد شوكة
ماردة الثائرة فلم يكديترك قرطبة حتى لعبت القوضى باهلها واخذل
النظام فرجع اليها واعدم كثيراً من الذين اعتقد انهم جرثومة التمرد
الذي يهدد سلامة المملكة . وكان الحكم يخشى الثورة ويتألم منها فالتجا
احيانا لافتك لاجل اخمادها .

اخذت طليطلة العاصمة القوطية الشهيرة بمرکزها الديني السياسي
تتطلع الى الاستقلال وتترقب الفرص المناسبة لمناوأة الامويين في
قرطبة واتصف اهلها بالشجاعة والفروسية وامتازوا بكبريائهم وكان
غريب Gharbib الشاعر يبعث فيهم روح الحياة والامل بالحرية
والجمهورية فاستولى على قلوب مواطنيه . ولم يجرأ الحكم على مهاجمتها
وردها الى الطاعة ما دام شاعرها حيا . فلما قضت عليه المنون ارسل
احد قواده المدعو بعروس لينفذ في اهل طليطلة خطة رهيبه كان قد

رسمها وكان قد استقدمه وكتب له بولايتها وهو من المولدين فاستمال
هذا اهل طليطلة بعد ان اكد لهم انه يكره الامويين والامير وانه من
اشياعهم ومناصريهم فانسوا به واطمانوا اليه و اشار عليهم ببناء مدينة
يعتزل فيها مع اصحاب السلطة فوافقوه وامضى رأيه في ذلك . ثم امر
الحكم صاحب الوجه الاعلى ان يستنجده خدعة منه للطليطليين ففعل
فبعث الجيش بقيادة ولي العهد عبدالرحمن مع ثلاثة وزراء غير انهم لم
يصلوا البلد التائر الا و امروا بالرجوع مدعين تقهقر العدو وارتداده .
ولما اراد عمروس ان يوقع الطليطليين في الشرك المنسوب لهم المح الى
زعمائهم بوجوب تأدية مراسم الاحترام لولي العهد تأدبا منهم وتعظيما
لمقامه السامي فكان له ما اراد وقد سعى عبدالرحمن جهده آنثذ كما
يكتسب مودتهم ويوثق عرى الصداقة معهم . وتباحث وزراء الحكم
اثناء ذلك في الاوامر الصادرة اليهم من قرطبة فقرروا ان يوعزوا الى
الزعماء من الوطنيين بدعوة ولي العهد الى مأدبة يقيمها عمروس في
المدينة التي اختطها فتم الرأي في الامر وكان عبدالرحمن قد امتنع عن
قبولها اولا ثم رضي ممتناشا كراً . فاتي المدعوون في اليوم المعين وكان
يدخلهم عمروس من باب ويخرجهم من آخر خشية الزحام فيدخلون
الى حفرة في القصر وتضرب اعناقهم الى ان قتل معظمهم وفطن
الباقون فنفروا وحسنت طاعتهم . ودعي هذا اليوم بيوم الحفرة وهلك
فيه نحو خمسمائة شخص ولا ريب انه البس طليطلة السواد على معظم

رجالها الناهضين. (١)

كان ليوم الحفرة تأثير كبير في الاندلس فهدأ الشعب نحووا من سبع سنين لكن حينما هدم الحكم اسوار قرطبة وحصونها واكثر من حاميتهما الفرسان والماليك الذين لقبهم بالخرس لعجمة الستهم وجهلهم اللغة العربية اهاج احقاد اهل قرطبة بدلا من ارهابهم فوفر عدد الغاضبين خصوصا في القسم الجنوبي من المدينة حيث يسكن معظم اهل الدين وطلاب الفقه والشريعة وساروا يتلاطمون تلاطم الامواج الى القصر ، طالبين قصاص الجند الذين عتوا وظلموا الشعب ، فبقي الحكم سنا كنا هادئا وامر عبيدالله احد اقاربه ان يحرق ربض الثاثرين بقوة من جيشه تخترق لها طريقا بين الجموع بحمد السيوف . وداهمت الثوار الخيل من ورائهم فانهزموا وتشدتوا حينما رأوا النار تشتعل في ربضهم . وطلب الحكم من اهل الربض ، ان يهجروا الاندلس قسراً فحلوا عن الوطن باهلهم ونزل بعضهم الاسكندرية وثاروا بها سنة ٨٢٦ . فزحف اليهم عبدالله بن طاهر وافتتحها واجازهم الى جزيرة كريت . وكان مقدمهم ابا حفص عمر البلوطي وظل رئيسا عليهم وكذلك ولده من بعده الى ان ملكها البيزنطيون من ايديهم سنة ٩٦١ ولحق البعض الآخر بفاس عاصمة الادارة وجزيرة صقلية . (٢)

(١) راجع عن يوم الحفرة في ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ و Moors in

Spain تأليف Stanley Lane Poole ودوزي ص ٦٢ — ٢٧

(٢) راجع عن وقعة الربض في ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٢٦ ، والمراكشي ص ١١

و Hist. des Arabes ج ٢ ص ١٤٩ تأليف Cl Huar

ويقول المقرئ انه اثنى في الامم النصرانية وكانت له مواقع
شديدة مع لويس بن شارلمان في الثغور . وهو اول من جند الاجناد
والمرتزة واتخذ العدة وجمع الاسلحة واستعد بالماليك حتى بلغوا خمسة
آلاف منهم ثلاثة آلاف فارس والفا راجل . (١) وحفت به الابهة
الشرقية فحاط نفسه بالحاشية واهل البلاط وارتبط الخيل .

ها اننا بعد ما سردنا ما تحققناه من الحوادث نعلم حق العلم ان الحكم
لم يرض عن تدخل رجال الدين في شؤون الدولة اما ابوه فكان يميل
اليهم واذا حضر مجلسا من مجالسهم امتلاء ادبا وتاريخا وذكر امور
الحرب ومواقف الابطال . وكان هشام عمرانيا اذا كمل بناء الجامع
بقرطبة وكان قد شرع ببنائه عبدالرحمن الداخل ، وجدد القنطرة التي
يضرب بها المثل .

ازدهرت الاندلس وزهت في عهد عبدالرحمن الثاني الذي اعتلى
العرش بعد ابيه ذلك لان ايامه كانت ايام هدوء وسكون فكثرت بها
الاموال فاعتنى بالمشاريع العامة فشيّد الجسور والمساجد والقصور (٢)
واقام الجنائن التي تجري بها نهيرات الصغيرة المجلوبة من الجبال واغدى
العطاء على العلماء والادباء وضرب بسهم وافر من علوم الشريعة
والفلسفة (٣) . وجرى خلفاء بغداد في ترفهم فحاط نفسه بالحاشية الكبيرة
ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة . وقد اشتهر بضعف ارادته

(١) المقرئ ج ١ ص ١٦٠ ، Cope ص ١٧٥ من الجزء الثاني يذكر شيئا عن ابيه

(٢) LanePoole ص ٧٨ ، Dozy ج ٢ ص ٨٧

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، المقرئ ج ١ ص ١٦٢

ولينه فإبرم بعض خواصه الامور ولم يرد لهم شيء مما ابرموه وكما نظهر
صورة صادقة للبلاط الاموي في هذا العصر العاصر نقول انه كان يؤثر
على الامير الشاب اربعة : فقيه وموسيقى وامرأة وخصي .

اما الفقيه فكان يحيى بن يحيى الليثي الذي سُمِّيه عقو الامير الحكم
بعد واقعة الرض المشهورة تلك الواقعة التي علمته ان القوة لا تكتسب
بالشدة والثورة والفوضى بل بالعطف واللين فاستمال عبدالرحمن ووجد
لما طفة الدين في صدره موضعاً رحباً فعمل دوماً باشارة يحيى وطأطأ
الرأس امامه وترك له القضاء ^(١) وقد قام الفقيه على رأس حزب عديد
من الشيوخ والنبلاء وعامة الناس الذين استهواهم بمبادئه منذ واقعة الرض
فاصبح ذا قوة معنوية عجيبة تؤثر على النفوس وكان ينكر على المستبدين
ظلمهم لئلا ياتهم بما اتهمت اليه امور الشرع جعل العسف سلاحه . وجعل
القضاة ياترون بامرهم كالاتمة العمياء خيفة على مناصبهم اما من عارضه
واتبع ضميره فكان جزاؤه الطرد . ^(٢)

اشتهر مذهب مالك في الديار الاندلسية فتفقه به جماعة وروى عن
يحيى طلاب كثيرون وكان الساطن لا يولي قاضياً في اقطار الاندلس
بغير مشورته واختياره ولا يشير هذا الا باصحابه ومن كان على مذهبه ^(٣)
فاصبح مذهب مالك قويا مكيناً . وارتحل الى المشرق وهو ابن ثمان

(١) Dozy ج ٢ ص ٨٨

(٢) Dozy ج ٢ ص ٨٩

(٣) المقرئ ج ١ ص ٢٢٨ اقرأ عن الليثي في ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٠

وعشرين سنة فسمع من استاذه مالك وتشرب روح تعاليمه وتنفقه على
رجال المدينة ومصر وتقع اهمية يحيى حقا في توطيده دعائم هذا المذهب
بكل قواه.

اما الرجل الثاني الذي خضع عبدالرحمن لمواهبه وجمال فنه فهو
زرئاب المغني واسمه ابو الحسن علي بن نافع مولى الخليفة المهدي
العباسي (١) وقد ضاهى تأثير زرئاب نفوذ يحيى وان لمب كل منهما
دوره في دائرة مخصوصة . وهو اعجمي الاصل تأدب في بغداد
ودرس على استاذه اسحق الموصلي المغني المشهور فهدي من فهم الصناعة
وطيب الصوت ما نازع به استاذه في شهرته عند الرشيد الخليفة العباسي
وكان ذلك حينما اقترح الخليفة على اسحق ان يأتيه بمنغن غريب مجيد
فاتي له بزرائاب وغنى في حضرته.

يا ايها الملك الميمون طأثره

هرون راح اليك الناس وابتكروا

فسر الرشيد طربا لكن ذلك هاج بالموصلي من داء الحسد ما
غلب على صبره فابعده بالتي هي احسن بعد ان دس في جيوبه فلوسا
واكد له ان يغتاله باذلا دمه وماله في سبيل ذلك فاختر الفرار ثم لما طلبه
الرشيد بعدئذ اخبره الموصلي برحيله بعد ان ابطأت عليه جائزة امير
المؤمنين وذم فيه زاعمها انه رجل يقيس مواهبه بمقياس من العجرفة
واثبت له جنونه بقوله « انه غلام مجنون يزعم ان الجن تطارحه ما يترهى

(١) المقرئ ج ٢ ص ١٠٩ ، و Dozy ج ٢ ص ٨٩ - ٩٦ و Huar ج ٢ ص ١٥٠

و L.Poolc ص ٨١

به من غنائه ، حقا ان زرتاب أثرت عليه عاطفاته فسمنت به النفس
الى الاعتقاد ان غناءه وحي يوحى له به .

مضى زرتاب الى المغرب وكتب الامير الحكم يعلمه بمكانه من
الصناعة التي يتحلها ويسأله الاذن بالوصول اليه فسر الامير واطهر له
الرغبة في ذلك ووعده بالانعام والمخف فعبرجر الزقاق وآتى الجزيرة
الخضراء . وظل هناك حتى توالى عليه الاخبار بوفاة الحكم فهم
بالرجوع فمنعه منصور اليهودى الموسيقى - وكان قد ارسله الامير
لاستقباله - واكد له ان عبدالرحمن الثانى شغف بالموسيقى ولوع بها
يحب اصحاب الفنون الجميلة الهبات الجميلة . ثم ارسل عبد الرحمن اليه
بكتاب يذكر فيه انتظاره له وامر عماله فى البلاد باكرامه . ولما وصل
العاصمة انزله عبد الرحمن فى دار من احسن الدور ووهب له البيوت
واقامه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع مايقوم
باربعين الف دينار وكتب له فى كل شهر بمئتي دينار راتباً^(١)

كان هذا الموسيقى الفنان متضلعا بالجغرافيا عالما باختلاف طبائع
البلاد واهويتها وتشعب نجادها وتصنيف سكانها وعاداتهم حافظا
لعشرة آلاف مقطوعة بالحانها وقد امتاز بنوع سليم وابتكار غريب
وقوة معنوية تجعل الانسان يشعر بجمال الفن السامى .

اما اهميته فتقع فى اشمال ثورة اجتماعية فى العادات واللباس
بالاندلس فاتخذ لكل فصل نوعا من الثياب ورأى ان يكون ابتداء

الناس للباس البياض وخلعهم اياه من شهر يونيو الى اول شهر اكتوبر
 ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة (١) ويقول المقرئ ان الاندلسيين
 اخذوا عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة . ان
 زرتاب حين امّ الاندلس كان جميع من فيها من رجل وامرأة يرسل
 جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين فلما عاين ذوو
 التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه بشعورهم وتقصيرها دون
 جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها الى آذانهم واسدالها الى
 اصدانهم هوت اليه افئدتهم واستحسنوها (٢) وصار زرتاب قدوة
 فيما سن من الآداب العصرية فدعاه دوزي «شارع القوانين» في اسبانيا
 العربية (٣) *Legislateur* وعرف الناس على ما كولات جديدة
 اخذت اسمه نعتا واستمر الغناء بالاندلس تبعا لمراسم زرتاب من بسيط
 ونشيد ومحركات واهزاج وزاد في اوتار العود وترّا خامسا اختراعا
 منه وجعل مضرا به من قوادم النسر معتاضا به من مرهف الخشب .
 والحقيقة التي لا بد من تقريرها هي ان شهرة زرتاب ظلت خالدة عند
 الاندلسيين الى اواخر حكم العرب في اسبانيا .
 امتاز زرتاب بشخصيته الاجتماعية الجذابة فلم يتداخل في الامور
 السياسية ولم ينتقد الحكومة وولاتها ولا تأمر عليها بل ترك هذا كله
 للسلطانة طروب والحضي نصر فكانت طروب طماعا محبة للمال

(١) المقرئ ج ٢ ص ١١٢

(٢) المقرئ ج ٢ ص ١١٢ دوزي ج ٢ ص ٩٥ L. Poole ص ٨٢

(٣) دوزي ج ٢ ص ٩٥ ويدعوه L. Poole ص ٧٢

ذات عقلية تستنبط الحيل والاشراك فباعته حبه العبد الرحمن الثاني
من اجل جاهه ونفوذه وقوته . ولما كان انصر الخصي صفاتها ومقاصدها
اتفقت ما ربهما ووثقت علاقات الصداقة بينهما وهو اسباني لا يجيد
العربية متمصب يكره المسيحيين كرها شديداً .

هذه صورة مصغرة لبلاط عبد الرحمن الاوسط ، البلاط الذي
اثر فيه عوامل الفتهاء والنساء والمغنين والحصيان فاضطرب حبل
الامن في بعض المقاطعات واشتعلت فيها نيران الثورة كمرسية فان
ضغائن المضرية والتمنية اوهنت عزائمها وشلت عروق الحياة النابضة
فيها ، ودامت عرضة للحروب وميدانا لسبك الدماء نحواً من سبع
سنين . اذك ماردة فاهلها المسيحيون تخا بروا مع لويس لودوبونير
Louis le Debonnaire^(١) ورضخوا للحكمه بعد ان عقدوا معه اتفاقاً .

من يعمن النظر ويعمل الفكرة في تاريخ الاندلس يقرر ان طليطلة
كانت دوماً قوية الشكيمة عاصية صعب على العرب حكمها والقبض
على زمامها وتاريخها ملآنة صفحاه بالاضطرابات والحركات الوطنية
الاهلية القاضية بالاستقلال الذاتي على الاقل فقد قام فيها بعد يوم
الحفرة رجل عامل اسمه هاشم الضراب . سكن هاشم قرطبة زمنا
طويلاً ثم رحل الى طليطلة مسقط رأسه والى الف العصابات العديدة
وقوامها الفلاحون والعبيد وتمكن من التنكيل بجند العاصمة الاموية
وطردها من طليطلة سنة ٨٢٩ . ومات هاشم بعد سنة من هذا التاريخ

(١) دوزي ج ٢ ص ٩٦—٩٧

لكن ظلت طليطلة مستقلة الى ١٦ يونيو سنة ٨٣٧ وذلك حينما فتكت باهلها جرثومة التفرفة والحذلان (١).

رضي مسيحيو قرطبة عن الامويين ورضخوا للحكم العربي لانهم كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية فجاروا اسيادهم في عاداتهم وآدابهم وسابقوهم في ترفهم واقتبسوا العلوم وسجروا باللغة العربية فاهملوا اللاتينية واهتموا بلغة الفاتحين وهام ما يقوله احد مواطنيهم نادبا حظ ابناء روماس ديهيم مواطنونا بالشعر العربي والآداب العربية ويدرسون تعاليم الفلاسفة ورجال الدين من المسلمين دون ان يدحضوا مدعياتهم ويقرعوا حججهم بالحجة. فمن من الجمهور يقر أفسفه الاسفار المقدسة ويدرس الانجيل وما اتى به الرسل . اواه ، يكاد الشبان المسيحيون لا يعرفون غير العربية وآدابها اذ انهم يكتبون على مطالعتها بحماس زائد ويجمعون من مؤلفاتها المكناب القيمة ويصرحون على رؤوس الاشهاد انها غاية في الابداع . واذا ما حدثتهم عن كتب النصرى اجابوك انها غير جديرة باهتمامهم لراككتها واذن اليس من المؤلم ان لا ترى بين الف من المسيحيين من يكتب بلغة لاتينية صحيحة الى صديق له مثلاً . ذلك لانهم طفقوا ينسون لغتهم بينا تسيل اقلامهم فصاحة وبيانا بالعربية (٢) .

ليس هذا الاقبال على موارد الاداب العربية بالامر الغريب فما

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٨

(٢) دوزى ج ٣ ص ١٠٣ وقد نقلها عن مخطوطة Alvar ص ٢٢٧ من كتاب

عاد في قرطبة مؤلف من مؤلفات الشعراء الاقدمين بل جل ما تناولته
الايدي لتبنا دينية وهي لا تلد عموماً للمطالعين مما يدلنا على احتقار
اللاتينية للاهمال الذي نكبت به على يد ابناءها .

قلنا اقتبل بعض الاندلسيين الحكم العربي بين ظهرانهم بسهولة
فاستعرب مثلاً ما يزيد على النصف من مسيحيي قرطبة لكن الروح
الوطنية والشعور باحترام النفس لم يدفنا دفناً ابدياً في صدورهم فارتجف
المعارضون الما وحقداً لمجرد ذكراهم ان قرطبة بلدهم الامين اصبحت
مكناً لابل عاصمة لامير عربي فاتح . فكان هؤلاء يحسدون
الحكومات الشمالية الصغيرة على استمتاعها بنعمة الحكم المسيحي ولو
ظالماً .^(١) اذ بذلتها لخاص من سلطة العرب المسلمين . بمثل هذه
العاطفات كانوا ينمون في انفسهم كره الغريب الاجنبي وقد زاد في
آلامهم واندفاعهم في طلب الحرية اصدار الحكام والامراء آناً بعد
آن اوامر تنافي الحقوق الدينية التي وهبت لهم منذ الفتح فاجبوا
الحتان على المسيحي اسوة بالمسلم^(٢) .

اذ لم يسد بين الامم شعور متبادل فيما ينظمه الافراد من الشرائع
والقوانين والمعتقدات فيصعب ان تتمازج الشعوب وتتقارب وتتسامح!
ولما كانت الكهنة^(٣) اكثر الناقمين على العرب لسوء فهمهم تعاليم
الرسول محمد (ص) نبي الفاتحين جعلوا بثيرون الاحقاد والضغائن

(١) دوزي ج ٢ ص ١٠٥

(٢) دوزي ج ٢ ص ١٦٥ نقل عن Alvaro Lami. ص ٢٧٣

(٣) لان بول ص ٨٣

بين الامتين العربية والاسبانية وينمونه بالخرافات التي اذاعوها عنهم
لظنهم انه اثنى معاكسا لما بشر به السيد المسيح وهاك . اقاله Alvaro
بهذا الشأن . امر محمد (عدو مخلصنا) ان تكون الجمعة يوم الافراح
والمسرات بدلا من ان تكون يوم الاحزان والصيام اذ بها صلب
الفادي المسيح بشر بالعفة ومحمد اثنى بالتهتك المسيح علم
الزواج ومحمد جاء بالطلاق ^(١) تلك حقيقة مضحكة مبكية لا بد من
ذكرها لانه متى اكتسب الشرق روح الشعور المتبادل نزع عنه
اكبر عثرة تقف في سبيل استقلاله وتقدمه .

يظهر مما تقدم ان الكهنة لم يفقهوا شيئا من الدين الاسلامي بل
ظلموا ينظرون اليه نظرا الى الوثنية الرومانية الاولى التي اختلقها الشيطان .
ان كان المسامون المتورون يحسنون معاملة المسيحيين ولا يسيئون
اليهم في دينهم فعامة الشعب متعصبة ليست على التساهل في شيء .
فبدأت باستهزاء الكهنة ولعنهم حينما تدق اجراس الكنائس معلنة
موعد الصلوات وزادات الحرفون الغلاة في استمساكهم بعروة التعصب
فما اقتربوا من مسيحي ولا لامسوه . ^(٢)

فلما جرح المسيحيون في كبريائهم وانفتحت شرع الكهنة والرهبان
وبعض العامة ينزحون الى المدن البعيدة عن النفوذ الاسلامي ويرفعون
رايات الثورة عصابات عصابات واقبلوا على الاستشهاد اقبالا جنونيا

(١) دوزى ج ٢ ص ٢٠٧

(٢) دوزى ج ٢ ص ١٠١ نقل عن P 2471 Euloge Memor Sanct

لان بول ص ٩٢

كما فعل الكثير على زعمهم من ابناء الكنيسة . اما الغلاة منهم فكان
يقودهم رجلان احدهما الكاهن Euigo تلميذ الراهب Sperain-Deo
المؤلف لكتاب يدحض به المدعيات والتعاليم الاسلامية والثاني
Alvaro النبيل القرطبي فاتفقا في مبادئهما ووثقت عرى الصداقة
المتينة بينهما .

دفع عقاب الحكومة العربية الصارم بعض من شتم النبي
للاستشهاد فاعدت في اقل من شهرين احد عشر من الثوار المتطرفين
فغضب من سلوكهم هذا بقية المسيحيين الذين ودوا ان يبدشوا بسلام
آمنين اذ لربما اضطهدهم المسلمون بعد ذلك وهم اصحاب النفوذ . وحق
للحكومة ان تخاف هذه الحركة القائمة على التمصب^(١) فنشر السلطان
ان لكم دينكم وللإسلام دين وعقد مجعلا لا تخاذ التدابير الضرورية
لايقاف تيار الاستشهاد . اما اعضاءه فكانوا اعظم الكهنة الاندلسيين .
ومثل عبدالرحمن الثاني فيه رجل مسيحي من ارباب المناصب العالية
في الدولة اتهمه Alvaro و Euigo بالكفر والرياء وتجردا عن ذكر
اسمه في كتاباتهما وهو يدعي قومس بن انطون بن يوليان ، كتب العربية
الفصحى وهو ما مورب بسيط فاستلفت انظار رئيسه عبدالله بن امية
والامير نفسه فاصبح ذا نفوذ طائل في البلاط . وكان لا يهتم بالدينيات
وانعالم غير المنظور فرمى المستشهدين بالجنون . وكما لا يعم الفتور
بين المسلمين والمسيحيين وتضمحل الثقة المتبادلة فيما بينهم وخيفة ان

يصير عدد كبير من العقلاء ضحية الجهل فيخسر ارباب المناصب
مناصبهم واموالهم ، جعل يندد بالاستشهاد وسار متمكثفا مع الحكومة
ومع قسم كبير من طائفته .

افتتح المجمع رئيسه مطران اشبيلية ريكافرد Reccafred فقام
قومس خطيبا ووصف الحال وصفا دقيقا واسهب عما تجره من
العواقب الوخيمة التي منشئوها سباب الرسول وشتته ثم رجا الاعضاء
ان يصدروا قرارا يمنع الشعب المسيحي من السير على منهج المتطرفين
ومحاكمة من نفخ في بوق الثورة ورمى بالبطء الى الاعدام ونشر
الرئيس قرار المجمع على الناس وهو يتضمن عقاب المهيجين فعارضه
Evulgo بكتاباته لكن المجمع تعضده الحكومة امر به جنه مع بقية
زعماء الفتنة .

ظهر (النورمان والدان Danes) او الميوس كما يلقبهم مؤرخو
العرب في ايام الامير عبدالرحمن الاوسط وغزوا الشواطئ الاسبانية
وعبروا انهارها فاتوا اشبونه وقادش وشدونه ثم قصدوا الى اشبيلية
ونزلوا قريبا منها فقاتلتهم الحامية العربية وهزمتهم لكنهم مضوا الى
باجه فاغاروا وسبوا ثم سكنت البلاد وانقطع خبرهم وكان ذلك سنة
(٢٢٦ — ٢٣٠ هـ)^(١)

كانت الدولة العباسية قد اوغلت في الفتح وضيق الخناق على

١ راجع ذكره « خروج المشركين » في مخطوطة للنويرى مطبوعة في
Recherches Sur L'histoire et la litterature de l'Espagne
Appendice xxxlv ثم قابلها مع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ — ١٣١

البيزنطيين في عهد المأمون فبعث ملك القسطنطينية نوفلس الى
 عبدالرحمن بهدية وطلب مواصلته ورغبه بملك سلفه بالشرق فكافأه
 الامير عن الهدية وارسل الشاعر الحكيم يحيى الغزال فاحكم الوصلة
 بينهما غير ان هجمات الشماليين النورمان والدان لم تتمكن الدولة
 الاموية من التحالف فملا مع البيزنطيين على الدولة العباسية في بغداد .
 قضى عبدالرحمن الاوسط ولم يوص بولاية العهد لاحد من ولديه محمد
 وعبدالله اللذين أمل كل منهما اعتلاء العرش والترجع على دست الحكيم بعد
 وفاة ابيهما فأقر رأي خصيان القصر حفظا لمصالحهم ان تلعب بها
 الايدي تعيين محمد دون عبدالله لانهم خافوا ام الاخير المطانة
 طروب لما عرفوا فيها من سعة الحيلة وشدة المكر . وكان الامير
 الجديد امانيا فلم يتأثر انبته لموت والده ، طماعا لا يفغل عن شاردة ولا
 واردة في امور المالية الا وكان يجني فوائدها لحسابه . اما اعوانه
 فكان الفقهاء المتعصبين فاعزوا اليه ان يضيق الخناق على المسيحيين
 فطرد الموظفين منهم في الدوائر الملكية والعسكرية وهدم الكنائس
 التي تم بناؤها بعد الفتح وكان من تقدمه قد غرض الطرف عنها . (١)
 ثم اضطهد منفسدوا وامره كثيرا من الابرياء فاجبر جمعاً غفيراً من
 النصارى على اعتناق الاسلام وفي طليعتهم قومس وقد لقبه الفقهاء
 بعد ذلك بعماد الجامع لورعه وتقواه .

هنا تتف لفسائل انفسنا عن نتائج هذا الاضطهاد فنرى ان

الطائيليين الذين ما فتئوا ينشدون الاستقلال وجدوا فيما قام به الامير
سببا للثورة فاستلم زمام قيادتهم رجل منهم يدعى Sindola فاجبر
حامية المدينة مع Calatrava على الانسحاب وزحف بجيوشه وجند
حليفه اوردونو الاول ملك ليون الى العاصمة الاموية فهددها الا ان
محمداً امر قسماً من جيشه المسير الى طليطلة ثم نصب المنجنيق على اسوارها
وكن بمعظم الجند في وادي سليط الوعر ^(١) Le guadacelete (٨٥٤)
فهاجم الاعداء لقلعة عددهم فانسحبوا الى ان اوصلوهم الى الكمين الممد
لهم فأطبق عليهم وفتك بهم فتكا ذريماً. وقد علق الامير ثمانية آلاف
من رؤوس الاعداء على اسوار قرطبة وطليطلة وارسل بعضها الى امراء
افريقيا عبرة للعصاة. وهدم دير Tabanes المحرك الاعظم لروح
المعارضة والقلق في الشعب المسيحي واعدم Eulgo في ١١ مارس
سنة ٨٥٩ وزاد الجندية فخضعوا للقوانين ولم يبق من تلك القلائل
الا الذكرى المؤلمة.

لم تمت العصبة الاسبانية في الاندلس بل كانت تنمو يوماً فيوماً
فكانت مقاطعة رية المسلمون والمسيحيون الاسبانيون كانوا يكرهون
اسيادهم العرب و أبوز الخضوع للغريب. وقد شجعهم على المطالبة
باستقلالهم ما صادفه اغلب الثوار في انحاء المملكة من الفوز فظلت
طليطلة تحكم نفسها بنفسها زهاء عشرين عاماً وعقدت المعاهدات القاضية
ان تكون حكومة جمهورية بشرط ان تدفع لخزينة قرطبة خراجاً سنوياً.

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٢٥

وكانت الارغون تتمتع باستقلالها ايضا تحت امره بني قاسي القوطيين المسلمين . وقد بلغت هذه العائلة اوج مجدها في القرن التاسع الميلاد وذلك ايام موسى الثاني الرجل الشجاع الخبير بفنون الحرب واساليبها فهابته ملوك فرنسا والكاستيل . ثم احتل السلطان سرقسطه و Tudela عقب موت موسى ، غير ان ابناءه يعضدهم الفونس الثالث ملك ليون اجبروا محمداً على اخلاهما^(١) . فنستنتج اذن ، ان الشمال ظل حراً مستقلاً . متحداً على الدولة الاموية في قرطبة .

واسس ابن مروان اماره في الغرب تشتمل على بطليموس^(٢) وما يجاورها ودعا الناس الى دين جديد متبسة تعاليمه من الاسلامية والمسيحية وحالف الفونس الثالث ملك ليون واجبر قرطبة بعد الاشتباك معها في عدة معارك على الاعتراف به .

يظهر لنا جلياً مما تقدم ان الحكومة العربية الاموية كان يتقلص ظلها في بلادها . ويضعف نفوذها في اطرافها وتتوى شكيمه الثوار في انحاءها فسرت عدوى الفتنة في رية فشقت عصا الطاعة سنة ٨٧٩ م لكن الحكومة اتخذت التدابير الشديدة فبنت الحصون القوية وعززت حاميتها فهبات نوعاً . حقا ان رية كانت كالبركان الهادي ان وجدت زعيما يقودها قذفت حمماً وناراً .

سكن في قرية قريبة من حصن اوت Hien Ante المعروف

اليوم بـ Yazante في الشمال الشرقي من مآلقه رجل نبيل يدعي حفص

(١) هوار ج ٢ ص ١٥١

(٢) راجع اخبار ابن مروان في ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ — ٣٣ — ٣٤

يتصل نسبه بنسب العائلة المالكة القوطية، وقد هبط جده الكونت تلك القرية في عهد الحكم الاول وذلك بعد ان هاجر روندا موطنه واعتنق الاسلام. وجمع حفص هذا، بجده واقتصاده ثروة تذكر فلقبه مواطنوه حفصون (ويقول دوزي ان الواو والنون في حفصون من علائم النبل^(١)). وكان سعيداً معتبطاً في حياته غير ان ولدآله اسمه عمر نعص عليه عيشه واذاقه من ضروب العقوق والاذى الوانا. فقام الولد يوماً وغضب على ابن جار لهم فقتله فأجبر الاب على الفرار ومغادرة الاوطان مع عائلته الى Serranie de Roudé وتقع هذه المدينة على سفح جبل بوباسترو^(٢). هناك في تلك الطبيعة الوحشية بمناظرها المريعة بوديانها الجليلة مجراجها عاش عمر عيشة اللص الشريد الطريد فسلب المسافرين وعابري السبيل فوقع تحت طائلة القانون وجلد ثم طرده ابوه من بيته.

ركب عمر متن البحار حينما ضاق عيشه وشح رزقه في اسبانيا فقصده الى تاهرت في افريقيا واستخدم عند خياط لكنه لم يكده يستقر به المقام حتى سمع من رجل شيخ من مواطنيه ان الثورة اشتعلت في بوباسترو. فرحل الى بلاده ثانية لانه كان من المؤمنين بالهضة الاسبانية والداعين الى الانشقاق عن العرب ولا ريب ان الطبيعة وهبته ذكاء نادراً ومواهب كبيرة فخرت هذه الفتنة ما كمن في نفسه من روح الاستقلال والنزوع الى الحرية فرمى ابرته التي ما خلق لملها ورجع

(١) دوزي ج ٢ ١٩١

(٢) ويدعوه العرب — جبل يشتر —

الى سيفه وغمده . فالف المصابات وجمع شتاتهم مع عمه وكل رجالها
من المزارعين والفلاحين واتخذ مركزاً له حصناً رومانياً صعب المرتقى
يدعى Castillion في بوباسترو . وشرع ينهب الاموال ويضرب
الضرائب ويستولي على الماشية في السهل الواقع بين الـ Campillos
وقرطبة . وحينما اشتد عزمه و كثرت جموعه جعل يطرق ابواب المدن
فجهز حاكم رية حملة ليقمع ثورته و يؤدبه فكان نصيبها الفشل وقد
ظل يعيش في الارض فساداً مدة سنتين الى ان اقنعه هاشم الوزير الاول
في المملكة بالتسليم بشرط ان ينخرط في سلك الجندية مع رجاله
ويشملهم الفوقفعل^(١) .

اظهر عمر براعة حربية وشجاعة فائقة حينما نازلت قرطبة في
صيف سنة ٨٨٣ ملك ليون وحليفه لوب رأس بني قاسي ، خصوصاً
في معركة Puncorovo لكنه حينما امّ العاصمة بعد القتال جعل محمد
ابن الوليد بن غانم محافظ المدينة ، يدس الدسائس لرجال ابن حفصون
وهم من الذين شملهم الوزير هاشم برعايته لحسد بينهما . فغضب ابن
حفصون وترك خدمة الامير وقفل راجعاً سنة ٨٨٤ الى بوباسترو طالباً
الحياة الحرة التي الفها وعاش منذ الصغر في كنفها .

ويمكننا ان نقول ان عمر نجح في نشر دعوته في اسبانيا الوسطى
Midi بين المسلمين والمسيحيين من الاسبان فطلب التخلص من
كابوس السلطات العربية والتمتع بالاستقلال . ومن الغريب ان رجاله

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٤ فما يلي وهو ارجح ٢ ص ١٥١ ولين بول ص
١٠٢ ، ودوزي ج ٢ من الفصل الحادي عشر الى الفصل الثامن عشر .

احبوه محبة تقارب العبادة فطاعوه طاعة عمياء وتعصبوا لشخصه تعصبا شديداً. ذلك لانه كان دووما في مقدمتهم ايام المارك فلا ينقلب الا حينما تخفق بنود النصر على رؤوسهم وقد أنعم عليهم النعم المتواليمة وغمرهم بمعطايه وقدر البطولة فيهم حق قدرها وكانت عدالتـه احيانا تقف سداً مكينا تجاه لصوصية بعض جنوده . لقد مضى عامان دون ان تعارضه قرطبة في اعماله وتقف تجاهه موقفاً حازماً صارماً فسار اليه المنذر ولي العهد سنة ٨٨٦ وحاصره مع حليفه حاكم Alba نحواً من شهرين متواليين فاراد الثائر الكبير ان يخرق له منفذاً من بين صفوف اعدائه فكسر وارتد الى حصونه بعد ان جرح جروحاً بليغة ثم أجبر المنذر على التقهقر ورفع الحصار عنه لان اباة محمداً توفي في ٤ اغسطس سنة ٨٨٦ فاغتنم ابن حفصون هذه الفرصة الثمينة وألحق به الحصون العديدة وحالف اصحابها واعترفوا بسيادته وأصبح بحق ملك اسبانيا الوسطى الحقيقي .

لو أنيـح للمنذر ان يعمر لكان خصماً عنيداً ونداً شديداً البأس لعمر وللخضد شوكة العصاة اذ عارض الثوار بقوى هائلة وبطش بهم مراراً حتى اصبحت كبرا والبيره وجاين ساحة تدور بها رحى الحرب يوماً له ويوما عليه .

قاد المنذر في ربيع سنة ٨٨٨ جيشه بنفسه فاكتمسح نواحي بوباسترو واستولى على عدة حصون وحاصر ارشيدونا فلم تلبث طويلا حتى خضعت فصلب قائد حاميتها ثم سار الى سيراوده ريجيوفاء قدم

زعماء الثورة وعددهم تسعة عشر رجلا وأتم الزحف حتى أتى حصن
بوابستر والمنيع فحاصره . ولما اشتدت الازمة على ابن حفصون سأل
الصلح فأجابه اليه وافرج عنه بشرط ان يسكن قرطبة مع عائلته وان
يكون من قواد الامير فنكث العهد فرجع لحصاره ثم صالح ونكث
مرتين الا ان المنذر صمم على القضاء عليه فماجته المنية في ٢٩ حزيران
سنة ٨٨٨ دون ان يتم امانيه (١) .

مات المنذر مسموما (٢) بيد جراحه وذلك بعد ان اغمره على
ارتكاب هذه الجريمة اخوه الامير عبدالله فاخذ البيعة لنفسه من
القرشيين والامويين ورجال الدوائر المهمة وقادة الجيش . وكانت
الجنود لا تطمع في احتلال بوابستر ولحصانها غير ان المنذر اصر على
فتحها آتئذ فحينما قضى ولت الجند الادبار غير عابثة بالمسؤولية .

تسبم عبدالله العرش والحال مضطربه والحكومة منهوكة القوى
تكاد تصير نحو الانحلال الكلي فالدولة الاموية كانت تجاه نارين ،
نار الاسبان بقيادة ابن حفصون من جهة ، ونار الارستقراطية العربية
التي بدأت تطالب بالزعامة والاستقلال من الجهة الاخرى . وقد كانت
الارستقراطية العربية اشد خطراً على الملكية العربية من الاسبان
انفسهم لانهم جرثومة حياتها وقوامها فان افترق اهل البيت الواحد

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٧ — وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ودوزي

ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٤

(٢) يقول دوزي ان المنذرات مسموما وان اخاه اشترك في التدبير عليه ج ٢ ص ٢٠٤

١٠ مالين بول فيدعي انه قتل وهو لا يبرى* اخاه عبد الله من الاشتر في الجريمة ص ٩٨

على انفسهم تهدم وكان امره بوراً .

أقر الامير عبدالله - اصلاحاً للامر - ابن حفصون على حكومة رية مشروطاً الاعتراف بسيادة قرطبة اعترافاً صريحاً فنجحت هذه السياسة الجديدة نو عا ثم رجع الناثر الى ما كان عليه فهب القرى وأعمل السيف في سكانها حتى وصل الى ابواب اوسونا وايسيجه Ecija و Ossuna وقرطبة . خسر عبدالله كثيراً بسياسة التقرب الى الاسبان التي جرى عليها فقاومه الزعماء العرب واستقلوا في المقاطعات البعيدة والجهات القوية الرهيبية ووقعت شقة الخلاف بين الشعبين العربي والاسباني . فالبيرة سكنها هذان العنصران وكانت قبلاً مهد النصرانية في اسبانيا لكن الاسلامية اخذت تتغلغل في ارجائها منذ ايام الحكم الاول فكثرت عدد المسلمين فيها وبنى لهم الامير محمد جامعاً على تأسيس حنش بن عبدالله الصنعاني الشافعي وقد جاء على محرابه كما وصفه الوزير لسان الدين الخطيب في كتابه « الاحاطة في اخبار غرناطة » ما يأتي « بسم الله بنيت لله ، امر ببنائها الامير محمد بن عبدالرحمن أكرمه الله رجاء ثوابه العظيم وتوسيعاً لرعيته فتم بعون الله على يد عبدالله عامله على كورة البيرة في ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ و ٨٦٤ م ^(١) »

كان عرب البيرة من سلالة الجند الدمشقي الذي نزلها ايام الفتح وكانوا عصابة ارسقراطية لم ياتلقوا ولم يمازجوا مع الاسبان الوطنيين بل عاشوا في محيط ماؤه البفض والعداوة المتأصلة في النفوس فاوقد

(١) « الاحاطة في اخبار غرناطة » تأليف الوزير لسان الدين الخطيب ، مطبعة

الاسبان في بدء حكم الامير عبدالله حربا عوانا على العرب الذين عصوا
قرطبة لسيانيتها — وقد أسهبنا في وصفها — وما زالوا بهم حتى
اجلواهم مع عميدهم الشاب يحيى القيسي عن «مونت ساكرو» حصنهم
المحصين ولقي الزعيم حتفه في العاصمة سنة ٨٧٩ م

بينما كانت الاخطار تهدد العرب من كل جانب وتنزل بهم المصائب
من كل صوب جعلت فوضى الاحزاب ترجع الاحقاد القديمة الى
الصدور وتشعل جذوتها فكادت الفتن التي قامت بينهم ان تمحوهم في
انحاء مختلفة كصيدونا وغيرها. اما في البيرة ففتنازع القيسيون واليمنيون
حينما ارادوا انتخاب خلف ليحيى فاتفقوا اخيراً وسلموا قيادتهم لزعيم
لهم أحسن تدريبهم فتأريوم «مونت ساكرو» العصيد^(١) باسترجاعه
الحصن الذي طردوا منه.

لما غلب اسبان البيرة على امرهم استجدوا قرطبة فأجدتهم
فهزمهم عرب البيرة هزيمة شنعاء وعقدوا المهادت مع عرب رية
وجاين وكالاترافا Calatrava وجددوا المذابح فهلمت لها القلوب
ووجت خوفاً فاقروا لهم الامير عبدالله النفوذ الاكبر في مقاطعة البيرة
فكفوا عن الاذى وشموا البلاد بالهدوء والسلام.

سرت الاخبار عن المظالم التي ارتكبها العرب راجرائم التي اقترفوها
فهاجت العاطفة الوطنية في الاسبان وهاجموهم في البيرة واجبروهم على
الالتجاء الى الحمراء لكنهم بعد قتال شديد كسروهم وشتوا شملهم.

فلما أصاب الاسبان ما أصابهم من البلاء انتجأوا الى عمر بن حفصون
فانجدهم لكنه هزم فتهقر وجرح ونسب انكساره اليهم وحملهم
ماناؤا تحته من الضرائب الباهظة .

تقلد الزعامة في اهل البيرة العرب رجال اشداء . احدثهم الشاعر
سعيد بن حودي مثال البطولة العربية فكان كريما شجاعا فصيحاً جميلاً
يحسن الطعان والنزل عالماً بمادات الاجتماع العصرية جذاباً له لطف
النساء وعطفهن .

قلنا ان اسبان البيرة قاتلوا عربها قتالاً شديداً لان العصبية الاسبانية
بدأت تنمو وتكبر وهنالا بد لنا ان تؤيد قولنا هذا فنؤكده ان هذه
الحركة امتدت الى اشبيلية وايقظتها . كانت اشبيلية مركزاً كبيراً للعلم
والمدينة الرومانية منذ العهد القوطي ومقرراً لمعظم العائلات النبيلة .
اما العرب فلم يقيموا في المدينة بل فضلوا سكنى الارباض والحقول فظل
الرومان والقوط اعز جانباً اشبيلية نفسها من الفاتحين . وكان اهلها اغنياء
اصحاب متاجر واسعة ومزارع خصبة وقد اعتنق معظمهم الاسلام الا
انهم حافظوا على صبغتهم الاسبانية في عاداتهم واخلاقهم وحفظوا انسابهم
الغربية كبنى انجلينو وبنى سباريكو Angelino و Babarico (١) واخلصوا
الولاء للدولة لاعتقادهم انها القادرة على حفظ السلام والامن في
الربوع لكنهم كانوا يرهبون العرب سكان الارباض المجاورة لتعصبهم
للجنسية والعصبية وكرههم الشعوب الاعجمية ولتعلقهم بتمون

الحرب والقتال ولطاعتهم العمياء لزعماء العائلات المختلفة . فنظموا
انفسهم فرقا فرقا على كل فرقة رئيس واتخذوا لها الاعلام وعقدوا
المعاهدات مع يمني اشبيلية وبربر مورون Moron حفظا لارواحهم
واحتياط التقابل السياسية .

تنازع النفوذ في اشبيلية عائلتان كبيرتان اشتهرتا بالسياسة والقتال
والادب وهما بنو الحجاج و بنو خلدون اما بنو الحجاج فقد تشرّبوا
المدنية العربية وآمنوا بها ايمانا خالصا وكانوا ينتسبون الى غيطشة (١)
من جهة امهاتهم وذلك ان حفيدته سارة تزوجت عمير بن لحم اليمني
فرزقت منه اربعة ذكور كان من ذريتهم بنو الحجاج . وكان بنو خلدون
عربا يمانيين من حضرموت . واهتم اعضاء الاسرتين بالتجارة والزراعة
والجندية وسكن معظمهم الابراج في الارباض ونزلوا الى قصورهم في
المدينة احيانا . وذكر مؤرخو العرب ان بني الحجاج وبني خلدون
اقتسموا الرئاسة السلطانية والعلم في ذيك الصقع (٢) فلما اضطرت
الاندلس بالفتن وسما رؤساء البلاد الى التغلب كان زعماء اشبيلية المرشحين
لهذا الامر على ما حكاه ابن خلدون (٣) امية بن عبدالغافر وكليب بن
خلدون الحضرمي واخوه خالد وعبدالله بن الحجاج . وكان الامير عبدالله
قد بعث الى اشبيلية ابنه محمداً والنفر المذكورون يحومون على الاستيلاء
فثاروا بمحمد بن الامير فانصرف ناجيا الى ابيه . ثم استبدامية بولايتها

(١) دوزي ج ٢ ص ٢٣٥

(٢) بن خلدون ج ٤ ص ١٣٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥ — ١٣٦

على مداراتهم ودس على عبد الله بن حجاج من قتله فقام اخوه ابراهيم
مكانه فثاروا به وحاصروه في القصر فخرج اليهم مستميتا بعد ان قتل
اهله واتلف موجوده فقتل وبعث الامير عبد الله هشام بن عبدالرحمن
عمه فاستبدوا به فعقبه كريب بن خلدون الذي توفرت فيه صفات الزعامة
فتمكن له الامر الا انه اضر العدا لبني امية في قرطبة فنفر عنه الناس .
كل ما قدمناه لك من الحقائق يظهر لنا تماما نوعا من نزاع العرب
النبلاء بعضهم مع بعض واستهلاكهم في سبيل الزعامة والمصلحة مهما
نتج عن تفرقهم من المصائب الجسيمة والخسائر الفادحة في الاموال
والرجال .

حقا ان اسبانيا المسلمة تحركت فيها الفتن من اقصاها الى اقصاها
فشرع الزعماء من الاسبان والبربر يرثون ملك بني امية ويعلمون
سلطانهم في مختلف الجهات ولم يكن الرؤساء العرب اقوياء سوى في
اسبيلية اما في بقية الكور فكان عليهم ان يجهدوا النفس في المحافظة
على سلامتهم وان يبذلوا الهمم في تنازعههم البقاء مع الاسبان والبربر
فاعلم ابن عطف استقلاله في *Ment sa* كذلك فعل ابن سالم في مدينة
بني سالم . ورجع البربر الى ما كانوا عليه من الاستمسك بالعصبية والحياة
القبائلية في الستر *امادير Estramadure* و *Alentejo* وجعل بنو نفزة
Truxillo مقر امارتهم واحتل ابن تاكيت البربري ماردة وهو من
مصمودة وكان "مدو" لا كبير لابن مروان سيد بطليموس لسكنه كان
لبني ذي النون انموذ الاعظم في البربر خصوصا في عهد موسى

زعمهم الرجل الذي وصفه المؤرخون بالجهنمي. (١)

اما المسيحيون الوطنيون الذين اعتنقوا الاسلام وتأدبوا بالاداب العربية فقد أخذوا للسكينة والسلام فاستقل في مقاطعة Osonoba التي تدعى اليوم Algrave (في البورتغال) لزعيم يحيى وذلك في أواخر عهد الامير محمد وكان قد احتل سانتاماريا أولا ثم بسط نفوذه على المقاطعة باجمعها وأشهر من تربع على عرش هذه المملكة المستقلة الصغيرة الامير بكر فلقد كانت له أهمية الملوك وعظمتها واهتم بأمر الجيش ونظمه وسلاحه وساعده في تدبير شؤون المملكة مجلس وزراء ووطد سبل الامن فراجت التجارة وأصبحت البلاد في بحبوحة من العيش. وعقد المعاهدات مع ابن حفصون وابن مروان صاحب بطليموس وغيرهما من الزعماء حتى أجبر حكومة قرطبة على الاعتراف به حاكما للمقاطعة. وكان حليفه عبد الملك بن ابي الجواد مسيطراً في الشمال على اجة و Mertola اما جبال Prigo شرقا فنضمت لابن مستانة Mastana حليف ابن حفصون وهي أضع من عقاب الجوف في عرف المؤرخين لخصائتها.

وكان اسبياد مقاطعة جاين جميعا حلفاء لابن حفصون يأتمرون بأمره ويطلبون رضاه ويطلبون في صداقته وأشهرهم خير بن شاكر صاحب Jedar وسعيد بن زريرال سيد Mn le n وبنو هابيل

(١) نجد بحثاً وادباً عن معظم هؤلاء الثوار في ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ ١٣٧ وابن بول ص ٩٨—١٠٧ وهو ج ٢ ص ١٥٢

حكام San Estevan وابن شالية صاحب Cazlona وكان هذا الاخير
 غنيا يهب الشعراء هبات جزيلة ونهيج على منهجه ديسم بن اسحق
 صاحب مرسية ولورقا فمطف على الادباء ووصلهم الصلوات الطائلة .
 كان ابن حنفه وزعدوا رهيبا اذن فاصبح القوم يتظلمون اليه بدلا
 من ان يوجهوا وجوههم شطر قرطبة فسار اليه الامير عبدالله سنة ٨٨٩
 فرجع عنه خائبا ولذا احتل الثائر Ossuna و Esteja واعترف اعالي
 Ecija بسيادته وقد ملأت انتصاراته المتتابعة قلب الـ امير خوفا
 ورعبا - بما وهو لا يعبا بيهوده فينكشها متى شاءت مشيئته ورأى
 فرصة ثمينة مناسبة فبعد ان ابرم على نفسه عهدا بالسلام والطمأنينة
 هاجم بربر بنس ابى حرب وكانوا حانفا الدولة واتحد مع Servando
 فاتح حصن Po i ويدعى اليوم Aguilar يقع في جنوبي قرطبة .
 حينما سقطت Baena صارت معظم معاقل الوادي الكبير
 تخضع لسلطانة فحلم به مذاك ان يكون سيد اسبانيا لمسلمة من اقصاها
 الى اقصاها وتحركت مظالمه الكبيرة فسمى لان يكون عاملا للخليفة
 العباسي فخابر ابن الاغلب ^(١) حاكم افريقية وارسل اليه التحف النفيسة
 فقبلها وشجعه وأمله بالولاية عليها والاعتراف به في بغداد . ترى هل
 يخسر ابن حنصون في سياسته الجديدة ؟ لا لانه لن يخسر شيئا بل
 قد يتساح بسلاح جديد هو نفوذ الخليفة على المسلمين ، ذلك النفوذ
 الذي يجعل عرب الاندلس الاقوياء تخضع له لانه يمثل اكبر ظل ديني

سياسي في الاسلام ، نعم قد تكون السيادة الاسمية لبني العباس ولكن
المسافات البعيدة بين قرطبة وبغداد تمنع تدخلهم تدخلا فعمليا وحكمهم
البلاد حكما مباشرا .

وجعل ابن حفصون Eeija مقره الحربي وضيق الخناق على
قرطبة فحاصرها وسد دونه المذاهب فخلت خزائنها من المال لان
العمال يجبون لانفسهم الضرائب ويكثرون الذهب والفضة في
صناديقهم فقلت اسعار الحاجيات الضرورية وصارت فاحشة .

لم يكن الامير عبدالله رجلا حربيا ولا بطلا من ابطال النزال بل
كان تقيا ورعا فلما يخرج من قصره . فهل يظل . ثابرا على سياسته
السامية التي اُنجت الفشل المستمرام يتخذ خطة اخيه المنذر الشديدة
نحو الثأر أم ماذا ؟ عرض على ابن حفصون شروطا كثيرة فاحتقرها
وازدراها . ثم نظر نظرة الفاحص المدفق الى خزائنه فاذهي خاوية خالية
واذا جيشه فقير ضعيف منهوك النوى لا يعتمد عليه فعزم سنة ٨٩٠
ان يحاطر بالكل كما يحفظ بالكل . وعاودته انفته ففضل الموت في
ساحة القتال على احتمال عار الذل . وكان جيش قرطبة يتألف من اربعة
عشر الفا ليس بينهم غير اربعة آلاف من الجنود النظامية اما جيش
ابن حفصون فكان يتألف من ثلاثين الف مقاتل وزحف اليه الامير
عبدالله فوصل حصن Polei في ١٥ ابريل سنة ٨٩١

امام هذا الحصن كانت جنود ابن حفصون تتهادي ثلثة بخمرة
الاتصارات المتوالية وتوقف نفوزها على جيوش قرطبة اما الامير

فكان يحمل آخر تراث للامويين فاما ان يحيا بحياتهم واما ان يموت
بموتهم وكان قاداته مئفانين في حب آل امية مستميتين في طاعتهم اشهرهم
عبيد الله بن ابي عبدة . فهاجم الجناح الايسر من الجيش الاموي قوات
ابن حفصون وضيق الخناق عليهما فتقهقرت ثم امنت في الهرب .
وتحدرت الجنود الاموية كالسيل العرم لا تبقى ولا تذر حتى التجبا
الثائر نفسه الى Ecija ورحل عنها الى ارشيدونا فوباسترو وتم للامير
الاستيلاء على حصن Polei وقفل الى قرطبة ماراً بالبيرة .^(١)

حفظ انتصار بلي Polei الامير والامويين من العدم بعد ان
فقدوا كل أمل بالحياة . فتضاعفت هيبة الحكومة بما ضمنته من البلاد
الى احضانها وفقد ابن حفصون نفوذه العظيم فاصبح الاغليون
لا يقابلون سفراءه بالتجاة والاكرام - كما فعلوا سابقا - ولا يهتمون
بشؤونهم . وانهمك بنو الاغلب في افريقيا بعدئذ يوطدون سلطانهم
فتركوا امر ولايته على الاندلس جانبا وما اعاروها اذنا صاغية ولا
قلبا واعيا . واخذ اهل البلاد يقتنعون ان امير قرطبة هو القادر على
توطيد الامن والسلام فخضعوا له . قلنا ان ابن حفصون هزم لكنه
في الحقيقة لم يقهر فاعاد غزواته المتتابعة واحتل البيرة وحمل على ابن
جودي وعرب غرناطة حملة شعواء لم تقم لهم من بعدها قائمة وجاس
خلال Ecija وبعبارة مختصرة فانه استرجع في سنة ١٩٢ م ما خسره

(١) راجع غزوة « بلي » في العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٧ ودوزي ج ٢ ، الفصل
الخامس عشر

سنة ٨٩١ انا استثنينا Polei

اعتنق ابن حفصون النصرانية علنا وقام يؤيدها على رؤوس
الاشهاد وانقلب على اسلاميه المتزعزعة الواهنة سنة ٨٩٩^(١) وتلقب
بعد ان تعمد بصموئيل فهاج الرأي العام الاسلامي عليه وأحدث ضجة
لدى الفقهاء الذين رموه بكل شائن وأتهموه بكل قبيح فتسلسل عنه
حلفاؤه المستلمون من البربر والاسبان

وكان هم ابن حفصون بعد ذلك ان يحالف الناقمين الغاضبين على
الدولة فخا بر ابراهيم بن قاسم البربري وبني قابي وملك البون واتحد
اولا مع الحجاج صاحب اشيلية الا ان هذنا تم اخيرا عليه ورضخ
للامير مشرطا ان يتمتع بالاستقلال الذاتي في مقاطعته. وكان محبا
للآداب والفنون الجميلة فام داره العلماء والفنانون من البلاد العربية
وبغداد وغص ناديه بالشعراء الاندلسيين.

وقد كان استتباب الامن في الربوع وتمام الصلح مع الحجاج فاتحة
عصر جديد للامارة فنشطت حينما رمت اشيلية سلاحها وهي مركز
الثورة في الغرب وساعدها الاقوى فاصبحت كل البلاد الواقعة بين
الجزيرة الخضراء Aljeziras و Niebla تا تمر بامر العاصمة وذلك في
السنين التسع الاخيرة من امارة عبد الله فاخضع جاين
سنة ٩٠٣ وانتصر على ابن حفصون وحليفه ابن مستانة في معركة
Guadalbolln واجبر ارشيدونا على دفع قسطها من حقوق بيت

المال وقهر Lugne سنة ٩٠٩ و Baeza سنة ٩١٠. ثم سمي لوب بن قاسي حاكما على Ludele و Tirazon فشاغل هذا ملك ليوز وكونت برسلوته وملك النافار بغزواته المتعددة. ويمكننا ان نقول ان عبد الله ضم شتات المماكة نوعا حينما استأثرت به المنية وهو في الثامنة والستين من العمر غير ان دعائمها لم تكن مؤسسة على الصخر المتين.

تسبم العرش لدى وفاة عبد الله الامير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله. اما ابوه محمد فقد قتله اخوه المطرف بامر ايها فشرع الامير السابق يشمل حفيده بعطفه وحنانه وحب له لما قاساه من توبيخ الضمير ووخز الندم. ولقبه ولي عهده. ولما قضى عبد الله كان عبد الرحمن لا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره فأوجس الناس خوفا على الفتى الشاب من اعمامه واعمام ابيه لانه لم يكن هنالك من قانون شرعي وراثي يتمشون بحسبه بل جرى التقليد ان يعتصب العرش اقوى افراد الاسرة المالكة بطشا واعزهم جانباً، والمؤكد انه لم يعارض عبد الرحمن احد في سلطانه بايدي ذي بدء بل فرح به الناس واغتبطت نفوس رجال البلاط لمواهبه السامية وسجاياه الباهرة.

سار عبد الرحمن على منهج سياسي صريح دون ان تتغلب عليه أهوائه فيتبع سياسة الاستغلاق والاهتمام كسلفه فشدد التنكير على الثوار لساعته وطلب اليهم الخضوع والتسليم وقد أعلن ان من اطاعه آمنه ومن عصاه أعدوه وربما يستنتج من هذا الكلام انه قد يجعل بذلك للتأثرين سبيلا للاتحاد فيتكاتفون ويتضامنون. لكنه كان قد

أزلفوا من أن تنتهي وإن تقف عند حدلان الاستقرارية العربية
وهنت وتضاءلت قواها ففقدت معظم زعمائها وقادتها كالشاعر
سعيد بن جودي وكريب بن خلدون وإبراهيم بن الحجاج ولم يبق
بعدئذ بين النبلاء العرب من اجتمعت فيه صفات الرئاسة.

أما الأسباب وهم الحزب الأعظم في المملكة فلقد انطقت فيهم
جذوة الروح الوطنية التي لبث دعاء ابن حفصون وقادتهم لمقاومة
النفوذ الغريب في البلاد. فهذات نيران الثورة وانطفأ شرارها وخلفهم
جيل لم يشمر بما شعر به آباؤهم من العسف والهوان ولا خالجت صدورهم
عاطفات الطمع والكبرياء ومنأوا الدولة الأموية حقاً انهم كانوا
يتألمون وحقاً انهم كانوا يشكون حالهم التمسمة أما مصدر بلواهم وبؤسهم
فكانت مظالم الفوضى والحروب الأهلية التي حرقت المزارع بمواسمها
وخيراتها والأرض بجناتها والقرى بمسارحها وأمامها فاخذوا للسكينة
والحياة الهادئة ورجعوا يسمعون في مناكب الأرض وراء الرزق ولمغرم
والكسب.

ثم خيم على ربوع البيرة وجابن وارشيدونا السلام ورجع
الامن الى نصابه أما في Ser. II مهـد الثورة فثبتت الفتنة لكن
بدأت علائم اليأس والتعب الشديد تذب طلائعها في النفوس فما أقبل
الجبليون على الجندية اقبالهم عليها من قبل وطفق ابن حفصون يأتي
بالم ترقة^(١) كما فعل اصراء قرطبة فلبست الحرب لباساً جديداً وأصبح

(١) دوزي ج ٢ ص ٣٢٣ وراجع « » في اواخر الجزء الثاني

من هم الجانبين ان يجتذب كل من رزقه الاخر لان هؤلاء الافريقيين لا يخدمون الا السخي الكريم والمزايد الاخير في دفع الرواتب والاجور. ولم تعد الوقائع دموية فلم ترزقة لا يجازفون بارواحهم في سبيل مطامع الرؤساء واذن فاجنأ الا - تقلال بامثال هذه الجنود امر دونه خرط انتقاد فقد قامت الامة الاسبانية تطالب به وعجزت عنه فكيف هؤلاء؟ اعترف ابن حفصون بسيادة عبيد الله الشيعي الفاطمي (١) حينما سأت حاله وضعف امره على ما يستنتج وكان الفاطميون قد أوغلوا في شملي افريقيا وطردهوا الاغلبين منها فلم ينج ثمرأ طيبا من هذه انما آيات وهنه وعدم ثقته باتباعه وذويه . وحادثوار من هدف الاستقلال واخطاؤه بمدئذ فاصبحوا عصابات عصابات في جاين والبيرة ، لا قوة تردعهم عن ارتكاب الموبقات ونهب السابلة ان اصدقاء وان اعداء فعمد الشعب اماله على الامير الشاب في قمع هذه الثورة التي تحولات الى فوضى وايقاع القصاص برجالها .

لم تخسر حركة الثوار هدفها الوطني فحسب بل اصطبغت بصبغة دينية انهكتها فكان ابن حفصون لا يميز اولا بين الاسبان المسيحيين والاسبان المسلمين ولا يعاملهم معاملة جائرة لبست على النصفصة في شيء بل كان كل لديه سواء اذهم ابطاله المجازفون بارواحهم في سبيل الدعوة الوطنية فلم اعتنق النصرانية مع بعض كبار قادته كابن مستانه وغيره جعل يسند المناصب العالية لمسيحي الاسبان دون مسلميهم

و يشيد الكنائس الفخمة في مدنه وصارت بوباسترو مقراً لروح الشعب
 التي عرفتها قرطبة قبل ذلك بستين عاماً. ^(١)
 فهذا الحماس في سبيل النصرانية لم يرق في اعين الكثيرين ممن
 بذلوا النفس من أجل الدعوة الوطنية واستقلال البلاد فهم وان كانوا
 يكرهون العرب الاغراب فقد احترموا دينهم والدين من اكبر
 الروابط التي تجمع بين الجماعات الانسانية. وخاف العميد ان تسود
 النصرانية في البلاد فيستمتع أسيادهم بالسلطة السابقة للفتح الاسلامي
 فيصبحون ضحيتها. وأمسى الدين من مفرقات هذه العصابة فاقتتلوا
 قتالاً شديداً في جاين وغيرها وخدمت فيهم تلكم الدار المقدسة التي
 من شأنها ان تدفع الرجال الى اعمال البطولة الخالدة.

كان الامير عبدالله سيء الظن متقلبا متردداً فقتل ثلاثة من اخوته
 واثنين من اولاده تسكيناً لريبه عدا ما امتاز به من ضعف الارادة التي
 تصاحب احياناً اصحاب الشخصية الواهنة. اما عبد الرحمن فكان
 جذاباً يستهوي النفوس لما أوتي من قوة البيان ودهاء السياسة فاستولى
 على قلوب مواطنيه باعفائهم من بعض الضرائب حينما تسنم العرش
 ولندكر ان الشعب كان يمطف عليه لما علمه من فاجعة ابيه في زهرة
 الشباب وعضاضة العمر، ذلك الاب الذي قدم بوباسترو وأنخرط في
 سلك الدعوة الوطنية. ^(٢) ولذلك كان الصالح اقرب الى الانعقاد في
 ايامه من ايام عبدالله اذ كان للامير الجديد من الماضي وشخصيته دعواتان

(١) دوزي ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ و دوزي ج ٢ ص ٣٢٨

كبير تان لقوام ملكه . ففتحت له المدن الكبيرة أبوابها كأستجة
وغيرها وسار يقود جنده ليخضع له شوكة العصاة فجنى الكليل النصر
وقاسم الجيش لذة الظفر وبؤس الاخطار والمتاع .
بدأ عبدالرحمن جهوده بالاستيلاء على جميع معاقل الارستقراطية
العربية فوجه أنظاره الى اشبيلية . وكانت تخضع لابن اراهيم الحجاج
الاكبر . اما قرمونة فظلت لمحمد بن الحجاج الابن الاصغر وكان محمد
هذا معبود الشمران لكرمه فلما عاجلته المنية أراد اخوه صاحب اشبيلية
ان يضعها اليه فلم يمهله عبدالرحمن البتة وزحف اليه بخيله ورجله فاطاع
وعينه من جملة وزرائه وحفظ للاشبيليين تقاليدهم في الحكم الذاتي .
ثم وجه قواه نحو Serina de Regi فنقاهم مع . كانها المسيحيين
وتساهل في بعض الامور فاكتمسب مودتهم فاطاعوه الا اهالي Tolox
فانهم دافعوا دفاعا مجيدا وضيق اسطول الدولة على ابن حفصون
الخاص فصادر كل المؤن والذخائر التي كانت تصله من افريقيا . ثم قضى
هذا الثائر الكبير في سنة ٩١٧ فاحدث نبأ وفاته فرحا عظيما في نوادي
قرطبة .

ان البطل الاسباني عمر بن حفصون ناضل في سبيل استقلال
بلاده ما ينيف على الثلاثين عاما فكاد يحطم العرش الاموي في
قرطبة لكنه رضع اخيرا للحكم القضاء . نعم لم يتم له طرد اعدائه من
وطنه العزيز ولم ينجح بتأسيس اسرة ملكية غير انه كان عضوا غريبا
في ثباته وكفاحه والحق ان اسبانيا لم تلد ارضا مثله منذ ان قام Viriathe

لتحرير بلادهم من السكاوس الروماني .
مات ابن حفصون والثورة تستعزيرها فابناؤه جعفر وسليمان
وعبدالرحمن وحفص ورثوا الكثير من مواهب أبيهم وبطولته فقاوموا الحكومة
ثم اجبر سليمان على التسليم وانتظم في الجندية وابلى البلاء الحسن ضد
النافار وليون . اما عبدالرحمن قائد . وقع Tolox فاستغنى عن الحروب
بقراءة الكتب فقضى شطر عمره الاطيب بين المخطوطات في المكاتب
الاندلسية .

واما جعفر فخضع للامير ودفع الضرائب السنوية وكان قويا رهيبا
عرف به ذلك عبدالرحمن حينما حاصر بوباسترو سنة ٩١٩ . و اراد
التقرب من المسلمين الاسبان والتعجب اليهم فاعتق الاسلام وبهذا
ارتكب الهفوة التي وقع فيها ابوه من قبله فاغضب جنوده المسيحيين
وتأمروا عليه ثم اعدموه واخوه سليمان راض عن عملهم^(١) (٩٢٠) .
ظل سليمان زعيما في بوباسترو الى ان قتل في المناوشة له مع الاعداء
سنة ٩٢٧ فعقبه حفص لكن الامير في يونيو من هذه السنة صمم على
اخضاع بوباسترو فحاصرها وقطع عنها جميع موارد الحياة فاحتلها
عبدالرحمن في ٢١ يناير (٩٢٧) وعفا عن حفص وقلده منصبا رفيعا
في الجيش .

وكان لابن حفصون وفاة تدعى Argenta دخلت احد الاديرة
وارتدت الى النصرانية حبا في الاستشهاد في سبيلها فأعدمتها الحكومة

العربية وقد تقبلت الموت بشجاعة^(١) سنة ٩٣١ .
دخل عبدالرحمن الحصن الحصين الذي ظل نحواً من نصف قرن
ثابتاً امام القوى الاموية وقد أقدم الامير عليه حينما أذل بقية الثوار كابن
مستانه في البيرة والبلنسيين وبنى قلبي اولئك الذين أفتتهم الحروب
الاهلية وغزوات الشمال فسقطت بين يديه ماردة وباجة وبطليموس
و Santarem وكانت ابني مروان الفـ اليسيين وذلك بعد حصار
سنة تمامها اما Oseonoba فنظر ألبعدها وتعلق شعبها بحاكمها ابن بكر
فقد حالفه عبدالرحمن على ان يدفع له ضريبة سنوية وان لا يجمل
ببلاده ملجأ للثوار.

ألقي جميع الثوار تقريبا سلاحهم عند اقدام عبدالرحمن ولم يبق
عليه حقا كما يصبح وريث اجداده الكبار الا فح طليطلة الجمهورية
المستقلة وكانت قد دافعت عن استقلالها نحواً من اربع وعشرين عاما
بمساعدة بني قلبي وملك ليون وجر دالامير عليها اخيراً حملة قويه
بقيادة سعيد بن منذر وزيره ثم أمده وبنى على جبل Djarancas
بالقرب من طليطلة مدينة سماها مدينة الفتح ليكون عليها الحصار
شديداً طويلاً وأمل اهالي الجمهورية خيراً بملك ليون لكن عبدالرحمن
شنت شمل جنده وما زال بها حتى فتك الجوع بها فكانها فسقطت .

ها قد خضع لعبد الرحمن الثالث العرب والبربر والاسبان وامتد
نفوذ الامويين على جميع البلاد الثائرة فحرم النبلاء العرب من التمتع

بامتيازات خاصة وحقوق موروثية كانت لهم وأصبحوا مسئولين عن
اعمالهم تجاه حكومة عربية يرأسها رجل حازم شجاع فرسخ الاسبان
لعنله وبطشه بالاستقرارية العربية وهان عليهم الاخلاص له
وكان هدفه ان يجعل من شعوبه المختلفة امة تتبادل شعوراً واحداً
فتعرف مصالحها المشتركة و منافعها اللازمة فلا تتعدى احزامها بعضها
على بعض وقد نجح بسياسته نوعاً على مرور الايام والسنين فأخذت
الاختلافات الشعبية تضمحل شيئاً فشيئاً فتمكن من اسناد المناصب
للجميع على السواء ولم يحرم منها قديراً .
رضى الاسبان بالحكم الاموي المطلق لانهم استطابوا الحكومة المطلقة منذ
العهد بن القوطي والروماني . ويظهر ان فكرتهم بشأن الحرية والاستقلال
كانت مبهمه غير ناضجة اذ حركتهم الوطنية الاخيرة لم تؤيد بالمبادئ
القوية وصدق العزيمة . اه .

الفصل الرابع

الدولة الاموية

في اوج علاها

أحدثت بالدولة الاموية في قرطبة نار الثورات التي اشعلتها الاحزاب
الاسبانية البربرية والفتن التي اوقدها الارستقراطية العربية . لكن
كان هنالك خطر ان كبيران جنوبي وشمالي هددوا المملكة باسرها . اما
الخطر الجنوبي فهو طموح المملكة الفاطمية الافريقية للاستيلاء على
الاندلس وادعاء رجاها الخلفه وهم من الشيعة الذين شايعوا عليا وقالوا
بامامته وخلافته نصا ووصاية اما جليا واما خفيا واعتقدوا ان الامامة
لا تخرج من اولاده وان خرجت فبظلم يكون من غيره او بتقية من
عنده^(١) فقام عبيد الله الفاطمي وانتسب الى علي واسس دولته
الافريقية وطرده الاعلبيين من القيروان ثم تفاوض مع ابن حفصون
الثائر وحالفه . فلم تنتج معاهداتهم مع هذا الزعيم عن شيء لان تيار
المصلحة كان يدفعه ذات اليمين وذات الشمال فظلوا يحركون ارباب
الزعامة عليهم لطمعهم بالخلافة . يدلنا على ذلك ابن حوقل الذي وصفها

(١) الشهرستاني — راجع مقاله عن الشيعة —

لهم بقوله ، تشتهر اسبانيا بغناها ووفرة خيراتها وجمال طبيعتها القتات
 وكثرة الضرائب التي يؤديها الاهلون عن يد وهم صـ اغرون . اما
 اقوامها فنغمسون في ترفهم ولهوهم وعبثا يقوون على الدفاع امام
 الجيوش الفاطمية اذا أتت الديارغازية فاتحة^(١) .

لو تم للفاطميين فتح الاندلس فقد يجردون ولا ريب أحزابا
 تعاضدهم وتأخذ بنصرتهم لا سيما والعامة المسلمون ينتظرون في كل
 حين مهديا جديداً اذ ان لهذه الفكرة ارضا خصبة في ادمغتهم .
 وودت الفئة المتنورة من الاندلسيين مساعدة آل فاطمة لما أصاب
 الفلسفة من الاضطهاد والمظالم في اسبانيا خصوصاً يوم محمد الامير الخامس
 فنظر اليها الفقهاء بعين الغضب والسخط وكانوا يتلمون من تساهل
 المباسيين في المشرق وتآليفهم بين قلوب العلماء من جميع الطوائف
 والاديان والشييع ومباحثاتهم في مسائل هي الكفر الخالص ، مسائل
 لا تدرك ولا تستحق الجدل لانها تخوض في امور هي ما وراء الطبيعة
 Metaphisiques اما الشعب الاندلسي المطيع لاسياده العلماء الطاعة
 العمياء فكان يكره الفلاسفة ويتهممهم بالانحاد ولم يتأخر البتة عن
 رجهم واحراقهم^(٢) فأجبر المفكرون الاحرار على اخفاء ما تستنبطه
 ادمغتهم من الاراء في فلسفة الحياة ، هذا عبء ثقيل على عاتق هذه
 العصابة فلا بدع ان ترهب بالذين لم يوصدوا باب الاجتهاد بمد .
 سعى الفاطميون بكل قواهم لان يؤسسوا حزبا كبيراً يعتمدون

(١) دوزى ج ٣ ص ١٧

(٢) دوزى ج ٣ ص ١٨ — ١٩

عليه في نشر دعوتهم واثارهم فعملوا ابن مسرة المشجع بالفلسفة
اليونانية آلتهم في ذلك وقد نجحوا نوعاً . لو تم لهم التغلب على اسبانيا
لكان للافكار الحرة نصيب طيب من الازدهار وسهم وافر من
التساهل الا انهم يصبحون مصيبة عظيمة على الشعوب الاسبانية
وخصوصاً المسيحية منها . فانهم كانوا قد صمموا على افنائها عن بكرة
ابيهما . نستنتج هـذا من اقوال ابن حوقل الذي يدلي برأيه في كيفية
اعداد النصراني فيؤكد ان هلاكهم يستغرق وقتاً طويلاً .

هـا اتنا اسهبنا عن الخطر الجنوبي الذي ارهب الامويين وفت في
ساعدهم . اما الخطر الشمالي فهو اشد وطأة لانه يمثل لنا نمو مملكة ليون
ونشوئها ، تلك القوة التواقفة للافلات من الحكم الاجنبي والمتطلعة الى
الاستقلال . كانت هذه المملكة ضعيفة واهنة يوم وطئها المسلمون في
القرن الثامن وخفقت اعلامهم على ارجائها ، فقام من اهلها يومئذ
ثلاثمائة شاب وجدوا لهم في شرقي جبال الاستوري Asturies حصناً
منيعاً يقيمهم هجمات الاعداء الفاتحين من العرب ، فالتجأوا الى الفار (١)
المسمى Cavadonga بقيادة بلايو الشجاع Pelage . Pelage مات اصحابه
جوعاً الى ان بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشرة نسوة . اهتم عيشن
الا من عسل النحل . وما زالوا متمتعين بوعر جبالهم الى ان اعيان
المسلمين امرهم واخربوا عن قتالهم وقالوا ما عسى ان يجيء منهم فانه
لن تقوم لهم قائمة (٢) . ظل بلايو مثابراً على عمله في تحرير بلاده فاني

(١) دوزي ج ٣ ص ١٨ — ١٩

(٢) دوزي ج ٣ ص ٢١

اليه الفارون الغاضبون من كل صوب فكثرت جموعه فشرع يهاجم
التخوم الاسلامية .

كانت الاستوري صغيرة جداً أيام بلايو وفوفيلاف Fofila خلفه
غير انها اتسعت رقعتها اتساعاً يدعو الى العجب والاستغراب على عهد
الفونس الاول فاستولى على مدن عديدة وطرده الحامية العربية منها
فاجبرها على التقهقر نحو الدورو والتاجة . ترى كيف نفسر نجاحه
الباهر في فتوحاته السريعة والى ماذا نمزوها ؟ هل كان ذلك لشجاعته
وبطولته كما يدعي مؤرخو الاسبان ؟ حينما تزوج الفونس ابنة بلايو
تضاعفت قوى المملكة بانضمام مقاطعة Cantabria اليها وهي واقعة على
الحدود الشرقية من الاستوري ومتصلة بفرنسة فتسبب عرش البلايين
واستفحل امره لكنه وان اتحدت هاتان المقاطعتان في الشمال
فيصعب عليهما مناوأة الدولة العربية التي تظل بجناحيها معظم اسبانيا
تقريباً ولا يمكننا اذن ارجاع اسباب نهوض الاستوري الى البطولة
فحسب بل الى اسباب اخرى يتلمسها الباحث ومعظمها عائد الى الحروب
الاهلية التي اشتعلت بين العرب والبربر والجوع الفتاك الذي عم
اسبانيا . (١)

اعتقد البربر اعتقاداً راسخاً انهم هم الذين فتحوا اسبانيا ومهدوا
الصعوبات التي كادت تقف في سبيل موسى وجنده العرب ومع ذلك
فلما حان اقتسام ثمرة الفتح فاز العرب الاسبان من الغنيمة بحصة

(١) ارجع اخبار هذه الحروب الاهلية بالتفصيل في دوزي ج ٣ ص ٢١ - ٢٢

الاسد فاعتلوا المناصب الرفيعة في الحكومة وسيطروا على الارضين
الخصبة واختصوا انفسهم بمدن الاندلس وقراها الجميلة وتركوا
لاصحاب طارق سهول الاسترامادير Estramadure القاحلة والثغور
السحيقة وجبال ليون وغاليسيا (جيليقية) والاستوري الرهبة (١)
فاجبروا على قتال مسيحيي الشمال الثأرين والالتحام معهم في عدة
وقائع فتألم البربر لهذه الحال آلاما شديدة وغضبوا واطهروا ما اخفوه
في الصدور من الاحقاد وشرعوا يستقبلون الدعاة المحرضين على الفتنة
بميين الرضى فاتحدت جموعهم في غاليسيا وماردة و Coria Talaver
وغيرها من البلاد الشمالية وطردت العرب لكنهم حينما تقدموا نحو
الجوب لعبت السيوف والحراب في رقابهم واخذ الجوع يفتك في
البلاد فتكا ذريعا نحواً من خمس سنين (٧٥٠ - ٧٥٥) ولذا رحل
اغلبهم الى افريقيا وانضموا الى اخوانهم في طنجة وغيرها من المدن على
الشاطيء الافريقي فاغتنم الغاليسيون هجرة البربر واندفعوا نحو البلاد
التي اخلوها وفتكوا باعدائهم وقد ارتد اهل البلاد المسلمون يومئذ
الى مسيحيتهم الاولى . فخسرت الدولة حوالي سنة (٧٥٣ - ٤)
كثيرا من مدن الشمال امثال Barga و Porto و Viseu و Astorga
وليون وسلمورة و Ledesma وسلامنكا وانسلخ عنها عدد وفير من
الولايات التابعة لسلطانها . (٢)

(١) راجع Recherches ج ١ ص ١١٩

(٢) » » ج ١ ص ١٢١

ولما كانت الديار التي اخلاها المسلمون يبابا اكتفى الفونس
بالحاق ما جاوره من البلدان كغاليسيا و Borduie - كاستليا القديمة
و Liebana ظل ما تبقى من الشمال صحراء جرداء هي اشبه شيء بحاجز
طبيعي بين الامويين واعدائهم . وقد سكن بعض البربر الشمال
كاستوركا وليون ودانوا بالمسيحية وظلوا محافظين على اسمائهم الاسلامية
العربية فدعي كهناتهم بقاسم ومحمود وهلال وايوب ومروان
وحجاج^(١) . ها قد صرت السنون على خضوع هؤلاء البربر لسلطة
الاسبانية ومع ذلك فتراهم شعبا له ميزاته الخاصة فحافظوا على عاداتهم
ولهم لهجتهم في النطق بالاسبانية وهم يعرفون بالماراكاتوس Maragatos^(٢)
اتم خلفاء الفونس من بعده ما صعب عليه ابرازه لحيز الوجود
فقاوموا العرب الواحد اثر الاخر حتى جعلوا ليون عاصمة لهم . وحينما
انتشر الثوار في البلاد في منتصف القرن التاسع اخذت مملكة ليون
المؤلفة من الاستوري وكاتبري تبسط نفوذها على ما جاورها حتى
اتهمت الى الدور وفشادت الحصون واشهرها سامورة و Siamancas و
Osma و San Esteven de Gormez فذادت عن حوضها بسلاحها وامنت
الغارات العربية . اما تلك الجهات الواقعة بين الدورو والكواديانا
Guadiana فكانت ساحة جبلت تربتها بدماء الليونيين والعرب من
اجل الاستيلاء عليها هذه . لمحة تاريخية عن هذه الدولة التي نمت من

(١) راجع Recherches ج ١ ص ١٢٦

(٢) راجع « » ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٧

شرذمة صغيرة تسلمت بالثبات فصارت كبيرة تناصب بني امية في قرطبة العدااء .

وقد قام احمد بن معاوية سنة ٩٠١ وهو من بني امية وادعى انه المهدي وجمع حوله الجموع البربرية وطلب الانتقام من الشماليين فالتقى بهم امام الدورو وهزمهم الا ان مرض الحسد الذي اصيب به بعض زعمائهم جعلهم ينفخون في الجنود روح التفرق والخذلان فتخلوا عن مهديهم فهلك . وكان من نتائج هذه الحملة ان وسعت اسباب الخلاف بين المسلمين واليونانيين واوغرت صدورهم بالاحقاد فرأى المرابطة في اسبانيا العربية شوكة وجب اقتلاعها وجرثومة شر لا بد من القضاء عليها وكان اليونانيون ان هاجموا مدينة اسلامية ذبحوا اهالها واعملوا في رقابهم السيف فلم يمتازوا بالتساهل الذي تحلى به العرب ، اولئك الذين عقدوا المعاهدات مع المسيحيين^(١) . وهنا يقف الاستاذ Dozy متسائلا عما ذا يكون نصيب المدينة الاندلسية لو اصبحت الامر يوما لهؤلاء اليونانيين الجبهة الاميين . نترك الجواب على هذا السؤال لبحث آخر مستفيض .

اننا بسطنا فيما تقدم ما وجب على عبدالرحمن الثالث القيام به من المهام الصعبة الشاقة يوم تسلم العرش فكان عليه ان يخضع قومه ويرد غارات اهل الشمال ويرمي بالنقاطيين الطامعين بالاندلس الى الورااء فلا يدع لهم سبيلا لهجور المجاز الى العدو الاوربية . فقد اطفأ عبدالرحمن الثورة في البلاد ووطد الامن في الربوع فانبرى الان كيف يقابل اعداءه

الانداء في الشمال والجنوب .

كان عبد الرحمن لا يود قتال اهل ليون فاجبروه على ذلك اذ قلم ملكهم
 اوردو نو الثاني Ordone II وخصب ماردة بدماء ابناءها واعدم حامية
 حصن Alang وسبي^(١) نساءه فهابه سكان بداجوز (بطليوس)
 واطاعوه وهاذوه . ثم رجع الى ليون ماراً بالتاج والدور . اما الديار
 التي جاس خلالها الاعداء فلم تكن قدر ضخت لاحكام الدولة تماماً ولذا
 كان يوسع أمير الاندلس ان يعرض النظر عما فعله اوردو نو الثاني لكنه
 احب ان يستولي على تلك القلوب الثائرة ويقتنص جها بالدفاع عن بلادها
 والذود عن حياضها فارسل في يوايو سنة ٩١٦ صائفة ابن ابي عبده
 الى الشمال فقفلت غازية^(٢)

طلب سكان التخوم في السنة التي تلت (٩١٧) من الامير عبد الرحمن
 ان يوقع بالليونيين الذين حرقوا ارباض Talavera على الاج فجهز صائفة
 تانية يقودها ابن ابي عبده نفسه وامره باحتلال حصن San Estevan de
 Gromez وكان جيشه يتالف من مرتقة طنجه واهل الحدود والشغور من
 الاسبانيول فلما هاجمهم اوردو نو الثاني بصفوفه تقهقروا ولاذوا بالفرار
 فدب الهلع في الجنود وسرت اليهم الفوضى فثبت ابن ابي عبدة الى
 ان قتل وانسحبت البقية الباقية من جيوشه الى البلاد الاسلامية^(٣) . لم

(١) ويدعوه ابن خلدون بحصن الحنش ج ٤ ص ١٤١
 راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢٢٧ . هذه الصفحات تتضمن وصف جميع
 غزوات عبد الرحمن الثالث

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤١

(٣) لين بول ص ١٢٠ دوزي ج ٣ ص ٣٥

بُد على عبد الرحمن امارات اليازر لهذا الانكسار بل شرع يعد حملة قوية
 يثار بها فحالت معضلات افريقيا السياسية موقتا دون تحقيق اماله في الشمال
 كان الفاطميون اذذاك يفتتحون موريتانيا ومتى اصبحت لهم فيها
 الحكمة النافذة وجهوا وجههم ولا ريب شطر اسبانيا فلذا وجد من
 الضروري ان يضمن لهذه المقاطعة استقلالها وان يتخذها سداً منيعاً .
 وما كان بوسعها ان يعلن الحرب عليهم وبلاده مهددة في الشمال بل راي
 من الحكمة وسداد الراي ان يساعد تحت طي الحفاء اولئك الذين ارادوا
 انقاذ هذه المقاطعة من الوطنيين . فسنحت له الفرصة حينما هاجم
 الفاطميون امير نيقور سعيد الثاني ^(١) (٩١٧) وكان قد طلب اليه الخليفة
 الفاطمي ان يخضع فابي فارس اليه حاكم تاهرت كما يخضد شو كته .
 فاراد سعيد مناجزته الواقعة قبل ان يبدأ بها القائد المهاجم لخلو بلاده
 من الحصون فباء بالخيبة وقتل في ساحة النزال . وقد دخل ابناء سعيد
 الثاني الثلاثة الى ملقا كما يتدبروا امرهم وينظروا عن كتب الماساة
 التي كان يمثلها الفاطميون في بلادهم . ثم اخلى جيش الاحتلال نيقور بعد ان
 مكث فيها نحواً من سنة فعاد اليها صالح الابن الاصغر لسعيد الثاني واعلن
 سيادة الامويين و امارته عليها فامدوه بالجند والاسلحة والاعلام
 جهز الامير عبد الرحمن جيشاً بقيادة بدر حاجبه لتناوأة الشمال وذلك
 بعد ان تم له ما اراد في الجنوب . وكان اوردونو الثاني وسانشو الافاري

(١) دوزي ج ٣ ص ٢٦ - ٢٧ فما بعد

نيقور بلدة في الريف تبعد نحواً من خمس مراحل عن الشاطئ

قد هدمنا Tudele Najera^(١) وحرقنا جامع Valtierra فسارت الصائفة وهزمت
ليون دفعتين في معركة Mutonia واقهر الشماليين تماماً. تلم عبد الرحمن
القيادة العامة منذ يونيو سنة ٩٢٠ فاحتل Osma وحرقها وظفر بحصن
San Estevan ثم اسند الى محمد بن لب حاكم Tudele ان يحتل Carcar
المحطة التي كان يهجم منها سانشو ذلك البلد الامين فالقاهها خالية. ولما أدرك
سانشو واوردونو انه لا قبل لهما بالثبات امام المسلمين اتحدا وتضامنا
فالتقي بهما الامير في "Val di juiuguer" واجبرهما على الخوض معه في معركة
فاصلة فشئت جيوشهما واسر كثيراً من الزعماء والكهنة^(٢) وصارت
النافار خراباً لان الجيش العربي لم يبق عليها ولم يذر وكثرت لديه
الغنائم حتى اتلف قسماً منها

كل هذه الانتصارات التي احرزها عاهل قرطبة لم توذب اعداءه
بل ظل سانشو النافاري ينازل الحكومة العربية فاحتل Vigue ra
واعدم حاميتها ومعظمهم من شبان العائلات الاسلامية النبيلة فحدث
هذا غليانا كبيراً في الاندلس واهاج صدور القوم فزحف اليه عبد الرحمن
ولم ينتظر موعد الصائفة (ابريل سنة ٩٢٤) وصدت لاسمه هيبة
في النفوس فاخليت الحصون قبل مجيئه اليها. وقد جرب سانشو مراراً
ان يصد هجماته فلم يفلح فهدم بامبلونا واحرق كاتدرائتها وبذلك ادعى
قلب النافار وهنا لا بد ان نتساءل عما حل بليون فنقول ان ملكها اوردونو

(١) لين بول ص ١٢٠ دوزي ج ٣ ص ٤٠ - ٤١

(٢) لين بول ص ١١٠ دوزي ج ٣ ص ٤٣ - ٤٤

الثاني قد توفي فمقبه Froila فقضى سنة ٩٢٥ ومن ثمة اخذت هاتيك البلاد تتخبط في ديجور من الحروب، الاهلية المؤلمة (١)
كان عبد الرحمن يطمع بالخلافة لما لها من القوة المعنوية في نظر المسلمين يومذاك فدعي باؤه من قبله بالامرء والسلاطين لكن لما ضعف امر العباسيين في المشرق وافتترقت تلك الدولة الكبيرة الى دويلات صغيرة واصبحت السلطة لامير الامراء في بغداد وغيره من الموالى في بقية البلدان التات امر الخلافة فكان الخليفة شجاعا دينيا فحسب .
ثم لما بلغ الامير ان المقتدر العباسي قتله مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ تلقب بالقاب الخلافة وامر بان يدعى بالخليفة الناصر لدين الله (٢) .
(في ١٦ يناير سنة ٩٢٩) وقد اربب بذلك الافريقيين العصاة فاعترف بسيدادته محمد بن الخزر رأس قبيلة مغراوة ثم استمال ابن ابي الدافية زعيم مكناسة وحليف آل فاطمة في افريقيا . والظاهر ان الحروب الشمالية الاهلية التي استمرت نازها سنة ٩٢٩ وسنة ٩٣١ جعلت للناصر الفرصة التامة في اتمام امانيه وما صبت اليه نفسه من الاصلاح الداخلي ثم انتهت هذه الحروب بتثبيت رامير الثاني على عرش ليون وكان شجاعا يضمن للمسلمين حقداً شديداً فماعد جمهورية طليطلة الثائرة على الامويين فهزمه جند العرب سنة ٩٣٣
اما معضلات الشمال فاخذت تلبس شكلا جديداً وتظهر بمظهر

(١) دوزى ج ٣ ص ٤٥ - ٤٨ ابن بول ص ١٢١

(٢) المقرئ ج ١ ص ١٦٥ ، كوپه ج ٢ ص ٨٧ ، هوارت ج ٢ ص ١٥٤

دوزى ج ٣ ص ٤٨ - ٤٩ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٩ ابن بول ص ١٢٢

غريب يستلقت الانظار فعمد محمد بن هاشم التوجي الثائر في سر قسطه
معاهدة مع رامير ملك ليون ضد الناصر^(١) ثم انضم اليها غرسية
عاهل النافار حايفافا بسبح الشمال اذن كتلة واحدة تجاه الدولة فسار
عبدالرحمن بجيشه سنة ٩٣٧ واحتل Calatayud واخذ يستنزل النافار
وسر قسطه الى ان خضع له .

فغفا عن هاشم واعترفت طوطة ام غرسية والوصية عليه
بسطة قرطبة .

قضى الناصر نحواً من سبعة وعشرين عاماً من حياته وهو بجني
اكليل الغار حتى اصبحت اسبانيا من اقصاها الى اقصاها خاضعة له سوى
مملكة ليون وبعض كاتلونيا . ووثق بالموالي والعبيد اولئك
الذين كانوا آلة صماء عمياء بين يديه يلعب بهم كيفما شاء فدعاهم
(الصقالبه)^(٢) . وكان يطلق هذا الاسم في الاصل على الاسرى
السلاف مما وقع في قبضة الجرمان وبيع الى تجار اسبانيا فسمّ الاسم
بعد ذلك جميع الغرباء من الجنسيات المختلفة في الجيش والبلاط .
وكان صقالبه الخليفة من الغاليسيين والفرنسويين والالمانيين
واللمبارديين وغيرهم من سكان شواطئ البحر الاسود فحماهم
القرصان الاندلسيون الى المراتى الاسبانية باموال اليهود . اما الخصيان
الذين خدموا في قصور النساء فجلبوا من فرنسا حيث كان لليهود بهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ، دوزى ج ٣ ص ٥٢ — ٥٣

(٢) دوزى ج ٣ ص ٥٩

ايضا تجارة واسعة وسوق رابحة . وقد اشتهرت مدينة Verdun وبعض الولايات الجنوبية بذلك . ثم كان هؤلاء الصقالبة الصغار يدينون بدين اسياهم العرب ويتكلمون لغتهم العربية ويتأدبون بأدابهم ويقلدونهم في عاداتهم واحوال اجتماعهم فاصبحت لهم المكاتب القيمة ونبغ منهم طائفة حسنة من الشعراء

كثرت الصقالبة في بلاط الامراء السالفين لكنهم توافر عددهم واشتد جمعهم ايام عبد الرحمن الثالث فبعض المؤرخين يقولون انهم بلغوا نحواً من ٣٧٥٠٠ صقلبي ويخالفهم غيرهم فيرون انهم كانوا ٦٠٨٧ نفساً ويُدعي آخرون انهم ولا ريب بلغوا ١٣٧٥٠ رجلاً فنستنتج من ذلك كله ان هذه الارقام احصيت في اوقات مختلفة عدا عن الاقبال الذي حازوه وقد اسندت اليهم المناصب الرفيعة مدنية كانت او عسكرية واجبرت الارستقراطية العربية على الخضوع لهم والاذعان لاوامرهم قهر النبلاء من صديع عبدالرحمن واضمروا له السوء فلما جهز جيشاً يتألف من مئة الف مقاتل لغزوه ليون ويضربها ضربة قاضية اسند قيادته الى نجدة احد صقالبته فالتهمت صدور الضباط العرب لذلك غيظاً وحقداً . وسارت الحملة الى الشمال سنة ٩٣٩ بطريق Salamanca فلاقاها راءير الثاني ملك ليون مع حليفته طوطا في الخندق ثم نشب القتال بين الجيشين فتقهقر الضباط العرب بجندهم الى الورا مدعين الهزيمة فلحقهم الاعداء المهاجمون وكسروهم شر كسرة

فباد من الجيش العربي فرق كاملة العدد و العدد وكاد الخليفة ان يقتل
ولولا الحروب الاهلية التي شغلت رامير الثاني عن اجتناء ثمرة
انتصاره لصعب تلافي الامر على عبدالرحمن . ويقول صاحب الاخبار
المجموعة انه لو ظل الناصر مسيراً بتلك العزيمة التي عرفناها به
اول امره لحكم الشرق والغرب لكن حينما مال للملاهي واوكل
الامور للمقربين منه دون اربابها امثال نجدة وغيره اصاب الدولة
ما اصابها في معركة الخندق المؤلمة . وقد اثرت هذه الواقعة اثراً سيئاً
على مشاعر الخليفة حتى انه لم يغز بعدها بنفسه ^(١) . ومما ساعد الخليفة
على اصلاح حاله ثورة الكاستيل التي اشعلت نارها على ليون
FerdinandGonzalez وكان يرمي الى الانفصال والاستقلال

كادت الايام ان تحمل اسبانيا ما لا طاقة لها به من الالام في افريقيا
ويصيها ما اصابها في الشمال في معركة الخندق لان عمال عبد الرحمن

(١) Recherches ج ١ ص ١٦٣ وها ما يقوله صاحب الاخبار المجموعة نقلاً
عن المسعودي وابن خلدون : ولكنه عفا الله عنه مال الى اللهو واستولى عليه العجب
فولى للهوى والغناء واستمد بغير الكفاة واغاظ الاحرار باقامة الاندال كنجدة الحيرى
واصحابه الاوغاد فقلده عسكرياً وفوضه جميع اموره والتجأ اكبر الاجناد ووجود القواد
والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند امره ونسبه وحال نجدة
حال مثله في غيبه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ اهل الحفاظ من رجاله ووجوه
اجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وسبها غزاة
القدرة لاحتقاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها اقبج هزيمة واتبعهم العدو اياماً بأسروهم
ويقتلونهم في كل محلة فلم يكذب ينجو منهم الا قوم جمعوا اصحابهم على الويتهم وتخلصوا
الى بلداتهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه وخلا بلذاته ومبانيه .

شروعوا يقاتلون بعضهم البعض بدلا من ان يتضامنوا ويتحدوا ويوثقوا
عمرى الالفه بينهم امام القوى الفاطمية غير ان الثائر البربري ابا زيد
اشغل الفاطميين عن الاندلس وكان شابا نشيطا درس الفقه وبث
تعاليم الحرية في البربر واتخذ القيروان مقرا لعماله ودعى قوم الى
مذهب مالك . وقد احرز الانتصارات الباهرة على اعدائه فاحاط
نفسه باهية ملكية ونسي مبادئه التي قام من اجلها فتخلى عنه حزبه
وقبض عليه الفاطميون فقتلوه سجيناً . ان هزيمة ابي زيد آلمت عبد
الرحمن كوقعة الخندق اذ بها استرجع الفاطميون ما فقدوه في افرنجيا
واجبروا اعمال الناصر على الالتجاء الى قرطبة (١) .

صوب آل فاطمة سهامهم الواحد اثر الآخر الى صدر الاندلس
فضاق الخليفة ذرعا وحالف Hugues de Provence سيد ايطاليا
التي اقم عليهم لانهم غزوا Genes ثم عقد امبراطور القسطنطينية
المعاهدات مع الناصر آملا ان يكون دونه الاكبر في استرجاع صقلية
من القائم الفاطمي (٢) وكانت صقلية المحطة الحربية لهم في غزو
الشواطى الاسبانية كالمريية وغيرها

لا ريب ان لعبد الرحمن المقام الاسمى بين جميع الامراء الاندلسيين،
اتى فالفى المملكة تقتلها الفوضى وتمزق احشائها الحروب الاهلية
وينشب الزعماء في صدرها مخالب اطماعهم ويهددها الشمال بالغزوات
العديدة والجنوب بغارات الافريقيين فاعلى منارها وضمن لها استقلالها

(١) دوزى ج ٣ ص ٦٧-٧٠

(٢) دوزى ج ٣ ص ٦٨ و ص ٧٦-٧٧ وهوارة ص ١٥٥

ووطد الاًمن والسلام في ربوعها^(١). كانت الخزينة خالية والمالية في حالة الفقر فاغتنت وقد قسمها اقساماً ثلاثة . فجعل الثلث الاول ويقدر بمئتي وخمسة واربعين الفا من الذهب للنفقات العمومية والثالث الثاني للبناء والعمران واذاًخر الثالث في الخزينة احتياطاً^(٢) واحصيت مالية الاندلس في سنة ٨٥١ فاذا هي نحواً من عشرين مليون من الذهب فكان الناصر في الاندلس وبنو حمدان في العراق اغنى الامراء والملوك في هاتيك الاوقات . ثم كان للزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون انصيب الاوفر من التقدم والازدهار فاقامت مشاريع الري المؤسسة على الطرق والاساليب العلمية في الارباض والمزارع وصارت ضرائب الواردات والصادرات معظم ما تتقاضاه الخزينة العمومية ويشهد لنا بذلك تقرير لرئيس الجمارك العمومية نفسه^(٣)

ضاهت قرطبة بسكانها الذين يمدون نحواً من نصف مليون وجوامعها الثلاثة آلاف وقصورها الفخيمة وحماماتها الثلاثمائة وارباضها الثمانية والمشرين ببغداد في سعادتها وعظمتها وقد طارصيتها الى اقصى جرمانيا فدعتها الشاعرة السكسونية Horswitha التي اشتهرت في النصف الاخير من القرن العاشر — بزينة العالم —^(٤)

واتصلت العمارة بها ايام بني امية ثمانية فراسخ طولاً و فرسخين

(١) ص ١٢٧ دوزى ج ٣ ص ٩٠

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٤٥

(٣) دوزى ج ٣ ص ٩١ عن ابو حوقل

(٤) دوزى ج ٣ ص ٩٢

عرضا وذلك من الاميال اربعة وعشرون في الطول والعرض ستة .
وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي الكير
ويقول المقرئ في وصف قصر الخلافة ما يأتي :

ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتحوا الاندلس في قصرها
البدائع الحسان واثروا فيه الاثار العجيبة والرياض الانيقة واجروا فيه
المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافة البعيدة حتى اوصلوها
الى القصر الكريم واجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من
نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال
من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنجاس الموه الى البحيرات
الهائلة والبرك البديعة والصحاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية
المنقوشة العجيبة، ^(١) واشتهر ايضا من القصور الكامل والحائر والروضة
والزاهر والمعشوق والرسوق والناج والبديع .

ابتدأ الناصر في نوفمبر سنة ٩٣٦ بعمارة الزهراء وظل في بنائها
خمسة وعشرين عاما . قال ابن خلكان في وصفها « ان الناصر انشاها
بالقرب من قرطبة ومسافة ما بينهما اربعة اميال وثلاثا ميل وطول
الزهراء من الشرق الى الغرب الفان وسبعمائة ذراع وعدد السواري
التي فيها اربعة آلاف سارية وثمانمائة سارية وعدد ابوابها يزيد على خمسة
عشر الف باب ^(٢) ، وكان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم

(١) المقرئ ج ١ ص ٢١٦

(٢) ابن خلكان ترجمة المعتمد بن عباد ، المقرئ ج ١ ص ٢٤٥ ، ج ١ ص ٤١٧

والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ائف وخسمائة دابة (١) وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان واثلاثة وجاب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من افريقيا واستدعى عرفاء المهندسين والبنائيز من كل قطر فوفدوا عليه من بغداد والقسطنطينية واتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور وظللة الشباك واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات مثل آلات السلاح للحرب والزينة وغير ذلك من المهن (٢).

ويقول ابن حوقل «انه لم يكن لقرطبة في المغرب شبيه في كثرة الاهل وسمة الرقعة وهي حصينة بسور من حجارة (٣)» ثم اشهرت بقنطرة طولها ثمانمائة ذراع وارتفاعها ستون ذراعاً وعدد حناياها ثمانية عشر حنية ولها من الابراج تسعة عشر برجاً (٤) بناها السمع بن مالك الخولاني واكلها عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي.

كانت قوى عبد الرحمن الثالث رهيبة فنازع اسطوله الكبير سلطان الفاطميين في البحار — خصوصاً البحر المتوسط — وانتصرت جيوشه المنظمة في الشمال والجنوب وخطب مودته امبراطور القسطنطينية وملوك ايطاليا وفرنسا والمانيا (٥) وانتشرت شرطته في اطراف البلاد

(١) المقرئ ج ١ ص ٢٤٦، دوزي ج ٣ ص ٩٢

٢ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

٣ معجم البلدان تأليف ابن عبد الله ياقوت الحموي الرومي، طالع عن قرطبة

في ج ٥ للقلقشندي

٤ المقرئ ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٤

٥ المقرئ ج ١ ص ١٧٠. ابن خلدون ج ٣ ص ٩٤

وانحائها فلم بكل صغيرة وكبيرة . وكانت الغاية التي يرمى اليها هي
ايجاد توازن سياسى يضمن للمملكة به سلامتها وحقوقها فتم له ما اراد
بمعاهداته العديدة ، وهب لان يكون من امته شعبا واحداً متحداً
فتساهل واستشار اناسا لا يدينون بدينه كما يستفيد من آرائهم
وافكارهم وكما يلم بالموضوع الذي يبحث فيه من جميع وجهاته ويصفه
دوزي بقوله انه لعاهل اولى به ان يكون من حكام هذا العصر
بدلاً من ان يكون من حكام القرون الوسطى^(١) .

سـ ارعلى منهج الناصر لما قضى الحكم المستنصر (١٦ اكتوبر
سنة ٩٦١) الشاب المولع بالآداب واقتناء الكتب القيمة النادرة
الجماع لها في انواعها فبعث في شرائها رجالا من التجار الى بغداد ودمشق
والقاهرة والاسكندرية حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه من
قبل وارسلت له الكتب من الشام وبلاد فارس قبل ان تصل الى احد
في المشرق^(٢) وجمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط
والاجادة في التجليد فاعى من ذلك كله ، واجتمعت بالاندلس خزائن
من الكتب لم تكن لاحد من قبله الا ما يذكرون عن الناصر العباسي
المستضيء ، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع اكثرها في
حصار البربر وامر باخراجها وبيئها الحاجب واضح من موالي المنصور
ابن ابي عامر ونهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم

(١) دوزي ج ٣ ص ٩٤

(٢) طبقات الامم للقاضي ابي القاسم صاعد بن احمد الاندلسي مطبعة السعادة بمصر

ص ١٠٢ — ١٠٣ راجع كونه ج ٢ ص ١٨٠

اياها عنوة (١).

اما عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب فاربع واربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لا غير . وكان عدد كتبه اربعمائة الف مجلد وهو ثقة في معرفة الرجال والاخبار والانساب (٢) وقلمها يوجد كتاب في خزائنه الا وله فيه قراءة او نظر وهي ذات اعتبار .

وكان الحكم المستنصر خليفة وسيع الصدر نير الفكر لم يضطهد الجديد من الرأي ولا حاربه بسلاح الاستبداد والوعيد ولا كاله ما كاله بعض اسلافه من انواع المظالم والاحن . فلجأ اليه العلماء والباحثون والفلاسفة وحمائم من شرور الجهلة المتعصبين وازدهرت العلوم في ايامه فكثرت المدارس الابتدائية ويقول دوزي ان الاندلسيين عموما كانوا يعرفون القراءة والكتابة سوى القليل منهم بينما كانت اوربا المسيحية امية اذا استثنينا رجال الدين والكهنة (٣) وقد اسس في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة مجانية لتعليم اولاد الفقراء ودفع رواتب الاساتذة من جيبه الخاص . وامّ جامعة قرطبة الوف الطلاب ممن درسوا الفقه والشريعة ويغلب على الغالب ان الدروس كانت تعطى في المسجد الجامع . ومن اساتذتها اذ ذلك ابو بكر بن معاوية القرشي النابغة في علم الحديث وابن القوطية امام النحو والقالي استاذ الآداب (٤) . اهـ

(١) المقرئ ج ١ ص ١٨٤ -- ١٨٥ ، ١٨٠

(٢) المقرئ ج ١ ص ١٨٤ ، دوزي ج ٣ ص ١٠٨ ، ان الحكم بعث في كتاب الاغانى

لمصنفه ابي الفرج الاصفهاني وكان نسبه من امية الفدينار من الذهب

(٣) دوزي ج ٣ ص ١٠٩ ، مؤارت ج ٢ ص ١٥٧

(٤) القالي صاحب (الامالي لكتاب المشهور في الادب العربي)

الفصل الخامس

الحاجب المنصور

كانت جامعة قرطبة مورداً عذبا سائغا لانتهال العلم واقتباس الفنون فاتاها الطلبة من كل فج في اسبانيا وغيرها من البلدان المجاورة ، وقد اطل من بينهم شاب عرف بدهائه وبطولته ، فلقبه مؤرخو الغرب في عصرنا هذا « ببسمارك العرب » في القرن العاشر للميلاد .

وفي يوم صفت سماءه ورق نسيمه ذهب ثلاثة من طلبة العلم يتزهون ويروحون النفس في حدائق قرطبة وانهم ليتجاذبون اطراف الحديث ويستمتعون صحائف المستقبل الغامضة — كما هو شان التلامذة في كل حين — اذ قام من بينهم فتى ذو خيال واسع خصب وقال لرفقائه « لو اصبحت يوما امير اسبانيا وافضى الي الامر فما تختارون من المناصب ؟ » فقال احدهم توليني قضاء كورة رية وهي مالقة واعمالها فانه ليعجبني هذا التين الذي يجيء منها ، وقال آخر توليني حسبة السوق فاني احب هذا الاسفنج ، وقال الثالث اذا افضى اليك الامر يا صاح فأمر ان يطاف بي قرطبة على حمار ووجهي الى الذئب وانا مطلي بالمسل ليجتمع علي الذباب والنحل وافترقوا علي هذا . »

ويدعي المراكشي ان كلا من هؤلاء بالغ امنيته على نحو ما طالب (١) .
انه مهما يكن من شأن هذه القصة وصحة روايتها فهي تظهر لنا قوة
الخيالة التي تفرد بها ذاكم الشاب والاماني التي تطاها والروح الخفية
في صدره .

كان هذا الفتي المقدمة يتطاع الى العرش وقد ملك ذلك عليه
جميع حواسه ، ولكن هنا يتبادر الى الازهان سؤال يعقبه علامات
استفهامية كثيرة الا وهو : كيف امكن ذلك الطالب الوضيع ان
يحتاط باهل البلاط في قرطبة ويعتلي عرشا اسس على الجماجم واهرقت
من اجله دماء غزيرة ؟ كل هذا سيدجلي معنا اذا معنا النظر في تاريخ
حياته المفعم بالحوادث . اما اسمه فهو ابو عامر محمد المعافري وجده من
العرب الذين فتحوا اسبانيا بقيادة طارق بن زياد . وقد ولد في قرية
تسمى طرش Torro على ضفاف نهر اروا Guadio من اعمال
المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، ورحل الى قرطبة وتادب بها على
اشهر رجال العصر كالقرشي والقالي وابن القوطية . ومما يؤثر عنه انه
كان ولوعا بالتاريخ محبا لقراءة سير اولئك الذين بلغوا من المجد مراتب
رفيعة وهم من اصول دنيئة فقيرة . ولقبه اخوانه الطلاب بالمعتوه
وهزأوا منه يوم كان يصرح بما تتوق اليه نفسه الا انه اظهر اخيراً
من المواهب السامية وضروب الشجاعة والتهور والثقة بالنفس
والقدرة على اغتنام الفرص ما جعله في مقدمة الرجال العصاميين .

ثم بعد ان اتم دروسه اقتعد دكانا^(١) عند باب القصر يكتب فيه
المعاريض لاصحاب الحاجات لدى الخليفة وعين بعد ذلك مأموراً
بسيطا في احدى محاكم قرطبة فلم يتفق مع الرئيس القاضي ، لاختلاف
مشاربهما فشكاه هذا الوزير المصحفي الذي نقله حالا لادارة املاك عبدالرحمن
الفتى ابن الخليفة الحكم . كان ابو عامر اذ ذاك في السادسة والشرين
من عمره ، وكان جميلا لطيفا اديبا فوقع من نفس السيدة صبح زوج
الخليفة موقعا حسنا بما استمالها به من النحف وحسن الخدمة^(٢) فجمده
مديراً لاملاكها ايضا ونهت عليه الحكم فولاه قضاء بعض المواقع
فظهرت منه نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشيدية وتقلب في غير
ذلك من المناصب حتى اصبح مدير المال او ناظر المالية في عرفنا اليوم .
وقد اكتسب بمنصبه هذا رضاء الكثيرين لانه امدهم بالمال الوفير
حين فرغت جيوبهم وخزائهم ووطد عرى الصداقة مع السيدة
صبح حتى اخذ الاندلسيون يعرضون بهما .

اما سياسة ابن ابي عامر فكانت اتقرب من الشعب وعمال
الحكومة فتم له ما اراد اذ جعل من جيش الماء وورين السنة شكر
لا تسبح الا محمده ولا تنفى الا بكرمه ونبل اخلاقه وصفاء سريره .
واتصل بالقادة ورجال الحرب نظراً الى اشتغال هيب اثورات في
موريتانيا وذلك ان عبدالرحمن الاصر حينما نبت سلطته في هاتيك
الاصقاع كان هباب اطماع الفاطميين في الاندلس غير انه اوجهوا وجوههم

(١) المقرئ ج ١ ص ١٨٧ ، كونه ج ٢ ص ١٨٢

(٢) المقرئ ج ١ ص ١٨٧

شطر مصر، وتم لهم فتحها (٩٦٩م) واختطوا القاهرة عاصمة لدولتهم
لم يعد ليهاب اصحاب الدعوة العلوية . وقد ود الحكم لويخلى الاصقاع
الافريقية لانها كانت تشغل عائق الخزينة بالاموال الباهضة فابي ان
يفعل هذا لئلا يخسر نفوذه عند الافريقيين فيعاودون سيرتهم الاولى
ويغزون الشواطئ الاسبانية . فاشمل حربا ضروسا على الامراء
الادارسة حلفاء الفاطميين ^(١) وهؤلاء قوم لا يميلون الا مع المصلحة
ولا ينفون الا من اجل المادة والمنفعة فوجدوا في آل فاطمة امة
تطلب منهم امورا كثيرة بعكس الامويين الطامعين في تعزيز ملكهم
وبسط نفوذهم في المدوة الافريقية حفظا للاندلس من الغارات
الخارجية . ثم اخضعهم الحكم جميعا الا حسن بن كنون الذي كاد ان
يطرد آل امية من المغرب فارسل له الحكم القائد غالبا ، وقد بذل
هذا اموالا طائلة في سبيل الاستيلاء على قلوب الزعماء والانضمام الى
صفوفه والتخلي عن التائر . ولكنه تحقيقا للغاية التي صرفت الاموال
من اجلها ، بعث الخليفة ابن ابي عامر مفتشا وقاضيا للقضاة هنالك
وطلب من اهل الدولة العسكريين والملكيين ان يؤدوا له حسابا
دقيقا عن اعمالهم .

وهكذا لاول مرة نرى ابن ابي عامر ذا علاقة بالجيوش وقادتها
وكان ذلك جل ما تمناه وصبت اليه نفسه وهنا لا بد اننا نفكر
بصعوبة المهمة التي ناء تحتها . فنرى ان مصالحته الخاصة قد املت عليه

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ ، دوز ج ٣ ص ١٢٣ — ١٢٧

ان لا يعجل قيد خطوة عن سياسة التقرب الى القواد والجند . اما
مصلحة الدولة فكانت تأمره بمناقشتهم الحساب ومحاكمتهم محاكمة
قانونية عادلة ان اساءوا استعمال ما وكل اليهم ، فوفق بذلكه ودهائه
وثاقب نظره الى الجمع بين امانيه وما الزمه عليه الواجب ، فارضى
الخليفة وجعل ارباب الجندية يثقون به ويهابونه ، وعقد الماهدات مع
الامراء الافريقيين من البربر وغيرهم واتى بالادارسة وابن كنون
خاضعين فاقتبلهم الحكم وعمرهم بنعمه .

لما بدأ الحكم المستنصر يشعر بالضعف والوهن في قواه ، عقد مجلسا
كبيراً حضره رجال الدولة وعظماؤها فطلب اليهم به تنصيب ولده
هشام خليفة للمسلمين من بعده فبايعوه فارسل ابن ابي عامر الرسائل
الى الجهات بهذا الشأن وقد خطب باسم هشام المؤيد حينما توفي الحكم
في اول اكتوبر سنة ٩٧٦ .

لفظ الخليفة نفسه الاخير بحضور الخصيين فائق وجوهر اللذين
كانت لهما اليد الطولى في ادارة شؤون الدولة . فتاب لهما راي في
تولية المغيرة اخي الحكم خليفة بدلا من هشام الفتى لكيلا تكون
للقباية يد قوية فعالة في امور المملكة فاخبرا الوزير المصحفي بما تم
رايها عليه فتابعهما مؤمنا لما قالاه وفي راسه فكرة رهيبية تتمخض ،
وقد عمل على ابرازها الى وزير الوجود . فدعا كبار الدولة أمثال ابن ابي
عامر وقاسم بن محمد وغيرهما من قادة الجيوش الافريقية الاسبانية
واسر اليهم ما عول عليه فائق وجوهر زعيما للقباية الخصيان وخوفهم

من المغيرة الرجل الرهيب في عرفه . فقرروا جميعا اعدام المغيرة السيء
 الطالع قبل ان يعلم بوفاة اخيه الحكم . لعمرى من يقدم على تنفيذ هذا
 الامر الهائل من بينهم ؟ قد يتبادر الى اذهاننا ان قائداً من القواد
 السفاكين يقوم بذلك حق القيام الا ان التاريخ يسطر ان التاضي
 المتشرع ابن ابي عامر سار بمئة من الحرس وبض الكتاب من الجند
 فاحاط بقصر المغيرة وماهى الا ساعات معدودات حتى امر بخنقه (١)
 تلك هي مأساة السياسة التي لا ترحم احداً . وما انبج فجر اليوم الثاني
 من اكتوبر حتى بويغ هشام من قبل اعمامه واقاربه ووزرائه واكابر
 دولته وتسمى المصحفي بالحاجب وابن ابي عامر بالوزير ثم بدأ هذا
 الاخير بالصقالبسة الخصيان فحمل المصحفي على نكبهم فنكبهم وكانوا
 ثمانمائة وبذلك حاز على رضى سكان العاصمة وخطب ودهم لانهم
 تحملوا من مظالمهم وعسفهم الشيء الكثير .

اخذ اسبان الشمال يشددون اذذاك الوطأة على الاندلس فاصلوها
 ناراً حامية وداوا بنجلهم ورجلهم خلال الديار حتى وصل البعض منهم الى
 ارباض قرطبة العاصمة . وكان ابتداء نشاطهم للزحف منذ تولية الحكم
 المستنصر . ولا ريب ان الحكومة العربية كانت قوية بجندها غنية
 بمايتها لكن تردد المصحفي الوزير الاكبر في الدفاع عن بلاد انهبها
 فلم زميله طالب طرش من ضعفه وعدم اقتداره واكد له ان المملكة
 تصاب بشلل معنوي ويعم البلاد السوء والاحزان ان لم يببادر الى

(١) دوزى ج ٣ ص ١٤١ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ و كويه ج ٢ ص ١٨١

الظهور بمظهر القوي الحازم امام الاعداء . فمقد الحاجب مجلسا لانظر في لوسائل التي يجب اتخاذها فقررروا الدفاع واوكل ابن ابي عامر المهمة بنفسه بشرط ان يقود جيشا يختاره وان يوضع تحت امرته مائة الف من الدنانير فاقروه على طلبه فاجتاح الحدود سنة ٩٧٧ واحتل حصن Banos الذي بناه رامير الثاني ورجع سابيا غاما . ليست هذه الحملة عظيمة الشأن بذاتها غير انها اتت بنتائج حسنة منها ارتداد الشماليين وجزعهم من الجراءة على نكب الاندلس وطاعة الجند لابن ابي عامر طاعة عمياء لما اغدق عليهم من الذهب الوهاج في سبيل رفاهيتهم وراحتهم .

بينما كان نفوذ ابن ابي عامر ينمو وينبسط في مختلف الجهات بدأت سلطة المصح في تتقلص شيئا فشيئا لانهم لم يكن ذلك الرجل الداهية الذي يعرف كيف تؤكل الكتف وتقتنص القلوب وتدار دفة الامور بحزم وثبات ، فبدلا من ان يسند المناصب الى اربابها جمعها في اهله وعشيرته ولندكر انه لم يكن اداريا يعمل الفكرة حينما تطرأ على الدولة مهام جسيمة الاخطار بل يعتمد على طالب طرش في حل معضلاتها ولطالما حلم هذا ان ينكبه ويتربع بنفسه على منصة الاحكام فيصبح رجل الحكومة المطاع . ومما زاد في الطين بلة نعمة العرب النبلاء على المصحفي لانتسابه للبربر الخامل الذي ذكر في عرفهم^(١) المصحفي الرجل الاول في الدولة آنشد لم يرتب البتة في صداقة

[١] راجع ترجمة المصحفي في المفرد ج ١ ص ٣٧٧ فما بعد

ابن ابي عامر له لانه كان يخافه غالباً، قائد الوجه الاعلى وصاحب
الكلمة المسموعة في الجيش . حقا ان غالباً كان يامل ان يصبح يوماً
حاجب الدولة لما بذله من الجهود في احراز اكاليل الفار لكن خاب فأله
وطاش سهمه باستيلاء المصحفي على منصب الحجابة وهو الرجل الذي
لم تعرفه الساحات يوماً انه بطاها المقدم فكان قائد الوجه الاعلى يظهر
للحكومة الطاعة ويضم لها الحق والقبضاء ويود لو يتحد مع الكاستيل
وليون كما ينكب المصحفي ويطرده من البلاد . وغزا ابن ابي عامر
في هذه الاثناء الشمال ثانية واتفق مع غالب في مدريد على اسقاط
المصحفي وقدمين لدى رجوعه محافظا لقرطبة . ومن جليل صنه اذذاك
انزله العقاب الشديد برجال الحكومة الذين كانت بهم مرض الرشوة
والاهمال فوطد الامن وضرب الجناة بيد من حديد .

افاق الحاجب المصحفي من غفلته لما راى ابن ابي عامر يمثل دوره بمهارة
فائقة على مسرح السياسة فتارة يظهر له بمظهر الصديق وطوراً يتفق
مع انداده عليه فاراد ان يفتك به لكن ان له ما اراد وهو ذلك الخصم
الذي حتمت السلطنة صبح واحبه الجيش وخطب وده اهل العاصمة
لظهوره بمظهر المصلح الكبير . ثم اخذ يبذل الجهد في الاتفاق مع
غالب مهما كلفه ذلك من الثمن الغالي فوعده بالنفوذ الطائل والحظوة
الكبيرة لولديه وطلب منه يد ابنته اسماء لابنه عثمان وكاد ان يتم الاتفاق
بينهما لولا منافسة ابن ابي عامر له وزواجه منها بعد ان استمال اباها
اليه فباء المصحفي بالخذلان . كان زواج اسماء بطالب طرش مبنياً على

المنفعة المتبادلة والمصلحة المشتركة الا انه فضلها على سائر نساته لجمالها
وتعقلها .

ان هي الا برهة بعد هذا الحادث حتى سيق المصحفي في ٢٦.٠٢٦ ارس
سنة ٩٧٨ م مع ابنائه واقاربه الى السجن بدعوى الاخلال بالامن
والاساءة في تدبير امور الدولة فحجزت جميع امواله وعقاره وقد عذبه
ابن ابي عامر عذابا اليما وانتقم منه انتقاما وحشيا فكان حينئذ يسجنه
واخرى يطلق سراجه الى ان اعدمه اما شنقا واما تسميما (١)
وقد عين ابن ابي عامر حاجبا بدلا من المصحفي وتمتع وغالبا
بسلطة واسمة غير ان رفقاءه الذين درسوا واياه علوم الدين من فقه
وحديث اتهموه بالزندقة والوهن في مبادئه الدينية لتساهله نوعا في
تشجيع الفلاسفة فعمدوا الى قتل هشام وتنصيب عبد الرحمن بن
عبيد الله حفيد عبد الرحمن الثالث مكانه واسقاط الحاجب الجديد
نفسه (٢) . وكان تلامذة الفقه عموما من المتعصبين لاسلاميتهم فشعر
بالاخطار المحدقة به وعزم على نزالهم بنفس سلاحهم . ان كان ابن
اب عامر فيلسوفا كما يزعمون فلقد كان رجل حكومة قبل كل شيء

(١) ومن بديع ما حفظ له في نكته قوله يستريح من كربه :

صبرت على الايام لما توت	والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى	فان طمعت تاقت والاتست
فواعجبا للقلب كيف اعترافه	والنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة	فلما رأيت صبرى على الذل ذلت
فقلت يا نفس موتى كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

المقرى ج ١ ص ٧٧٧

(٢) دوزى ج ٣ ص ١٧٢

فات بالعلماء من امثال ابن الزبيدي وغيره الى مكتبة الحكم المستنصر
وامرهم بانتزاع كتب الفلسفة واحراقها. (١) . يمد طلبة الفلسفة
ماقام به ابن ابي عامر جريمة لا تغتفر وضرباً من الخسارة العلمية
الجسيمة لاسيما وهو الرجل النير الفـكر والمشترع الحكيم . لكن
السياسة قضت عليه ان ينزل على ارادة علماء الدين والعامه ويجعلهم
من اعوانه ومناصريه وان لا يكون لاحد منهم حجة على فتكه
بالتأمرين . فكان له اذن من تقاه وشهرته في توطيد دعائم الدين
حصناً حصيناً يقيه غضب البلاد . ثم وجه همه بعد ذلك الى اتخاذ الوسائل
الضرورية للاحتفاظ من اشراك الخليفة الصغير الذي بدأ يفهم معنى
الحياة والقوة .

كان هشام الثاني المؤيد ذا عقلية طيبة خصبة وغاية في الحدق

(١) وهاك تفصيل الحادث : وعمد ابن ابي عامر اول تغلبه على هشام الى خزائن ابيه .
وابرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر خواص من اهل العلم بالدين وامرهم باخراج ما
في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلوم النجوم . حاشا كتب
الطب والحساب فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والاشعار والاختبار
والطب والفقہ والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة عند اهل الاندلس الا ما افات منها
في اثناء الكتب وذلك اقلها امر باحراقها وافسادها فاخرج بعضها وطرح بعضها في آبار
القصر وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب من التنايير وفعل مثل ذلك تحبياً الى
عوام الاندلس وتقيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند
اسلافهم مذمومة بالسفة رؤسائهم وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج من الملة
ومظنوناً به الاحاد في الشريعة فسكن اكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم
وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم « طبقات الامم للقاضي ابي القاسم صاعد بن احمد
الاندلسي ، مطبعة السعادة مصر ص ١٠٢ - ١٠٣

والذكاء في صغره كما يشهد بذلك الزبيدي مؤدبه^(١). فاتفقت السيدة
صباح امه مع ابن ابي عامر على خنق واهب هذا الفتى في مهدها وعدم
تنشئتها وانماها فحملاه ما لا طاقة له به من الفروض الدينية والواجبات
الروحية حتى ناء تحت عبئها الثقيل.

خاف الحاجب ان يوسوس احد لهشام فيخبره حقيقة امره وما
لمنصبه الديني السياسي من الاهمية، ذلك لما ارتد قصر الخلافة مركز
الحكومة من الامراء والقواد والكبراء وغيرهم من الذين لا يبمد البتة
ان يثيروا ريب الخليفة الفتى وان يعملوا على اسقاطه فلما استفحل امره
وكثر اضداده وانداده وسما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر
ينزل فيه ويحمله باهله وذويه ويتم به تدبيره وسياسته امر بتشيد
مدينة الزاهرة على الوادي الكبير^(٢) مقر الحكومة الرسمي وشحنها بجميع
اساعته واهلها وامتعتة واتخذ فيها الدواوين والاعمال ثم اقطع ماحولها
لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور
وقامت بها الاسواق وكثرت بها الارفاق. ومن ثمة نفذت الكتب
والمخاطبات والامور باسمه وتلقب بالحاجب المنه ورودعي له على المنابر
عقب الدعاء للخليفة ومحارسم الخلافة بالجملة وكتب اسمه في السكة
والطراز^(٣) ولم يبق لهشام غير الدعاء ايام الجملة. فحجر على الخليفة كل
تدبير واحاط قصره بسور منيع وبث الميون والارصاد للسهر على كل

(١) دوزي ج ٢ ص ١٧٨

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨، القرى ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ج ٣ ص ١٨٣

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨

شاردة وواردة يقوم بها واصبح حقا اسير ابن ابي عامر الذي ادعى ان
امور الدولة قد فوضت اليه من قبل الخليفة (١).

وثق الحاجب من قوته فشرع بتنظيم الجيش وكان له في ذلك
غايان الاولى وطنية وهي ان يكون من اسبانيا المسلمة مملكة من اقوى
الممالك الاوربية والثانية شخصية بحتة ترمي الى اذلال غالب ومحو نفوذه
والتسيطر عليه ، وقد ضعف امر الجيش آنذ لما كان من التنافس الشديد
بين زعمائه فنفيخوا في الجند روح التفرقة والانشقاق آنا بعد آن ومرة
اثر اخرى ويظهر ان جمال المحيط وسكونه وروعه اثر عليهم فاضعف
فيهم بطولتهم الحربية فاخذوا للدعة وكان جيش التخوم لا يتجاوز
عدده الخمسة آلاف وهؤلاء لا يعتمد عليهم في صد غارات الاعداء
والاستبسال في الدفاع لقلتهم عدا ما كان يامل به ابن ابي عامر من
الفتوحات وقهر غالب .

لا ريب ان غالبا كان من اكبر مناصري ابن ابي عامر على المصحفي
لكنه لم يستحسن اعماله في حجره على الخليفة هشام ومعاملته معاملة
الاسرى والمجرمين السياسيين لا سيما وغالب ملكي اكثر من الملك
اذ هو ربيب آل اميه ومولى لعبد الرحمن الثالث . فلم يطق الحاجب ان
يشاركه احد في امور ادارته ولذا قرر التخلص من هذا الخصم العنيد .
وكان غالب من الرجال الذين لا تلعب بهم المكائد ولا يصطادون
اصطياد السمك في الشباك بل قائداً محمكا عرك الايام وبلته صروفها

واحزائها ولو اعلن انتصاره للخليفة على رؤوس الاشهاد لا نضم اليه خلق كثير^(١) فوجه ابن ابي عامر همة نحو اكتساب جند يكون له بكايته كما ينتصر على نده ويتهرد فلستدعى اهل العدو من رجال زناته والبربر ورتب جنداً واصطنع اولياء وعرف عرفاء من مغراوة وصنهاجة^(٢) وغيرهما وقد اطعمهم بالرواتب البهظة واغدى عليهم النعم فاقبلوا اليه زرافات ووحدانا.

قلنا اقبل بربر افريقيا على خدمته وقد انضم اليهم عدد وفير من مسيحيي الشمال من الكاستيل وليون والنافار لكرمه الحاتمي وقرهم المدقع فاكتسب مودتهم واخلاصهم واستولى على قلوبهم برحابة صدره واحسانه وعدله فاصبحوا ملكا له يتصرف بهم كيفما شاء وشاءت اهواؤه ومطامعه وكانوا لا يفهمون العربية الا انهم نسوا اوطانهم الاولى ووجدوا بالحاجب وطناً وحده^(٣).

ثم حور نظام الجند بتمامه حينما ازداد في جيشه عدد الاجانب والاغراب فما عادت القبائل وتولف الفرق بل اجبر الافراد ان تنخرط في سلك الاقسام الغريبة عن قبائلهم فانطقاً نفوذ الرؤساء من النبلاء وبات الجندي لا يعرف القبيلة التي ينتسب^(٤) اليها وبذلك مزج شعوب

(١) دوزى ج ٣ ص ١٨٢

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ ، المقرئ ج ١ ص ١٨٦

(٣) دوزى ج ٣ ص ١٨٧

(٤) دوزى ج ٣ ص ١٨٧ — ١٨٨

الاندلس بعضها ببعض واتم الوحدة التي بدا بتأسيسها عبد الرحمن الثالث من تلك الامم المختلفة ديناً وجنسية ولغة .

تم لابن ابي عام ، ما اراد من تاليف جند مخلص يهبه الروح فاصبحت الحرب قاب قوسين او ادنى بينه وبين غالب فوقعت واشتباك في معارك عديدة ساعدت بها ليون خصمه وكان ذلك بعد ان اتبه غالب على حجره للخليفة وكاد في آخر مرة التقى بها جيشاهما ان يبرلي الحاجب الادبار لو لم يصاب غالب بجراح قضت عليه ، فذب الهلع في صفوفه (٩٨١ م) وباء بالهزيمة . انتصر الحاجب انتصاراً باهراً على نده فحمل على ليون حملات صادقات ليظهر ان جيشه لم يكن له فحسب بل للوطن ايضاً فانزل بها قصاصاً شديداً واستولى القائد عبد الله الذي يلقبه الافرنج Pierre Seche ، (٢) على ساورة Zamora ، سنة ٩٨١ وهدم نحواً من الف قرية بكنائسها وادرتها واستنزل الحاجب حليفتي رامير الثالث الكاستيل ، والنافار في معركة Rueda في الجنوب الغربي من Simancas وكسرهم اشد كسرة ،

وكانت الضربة شديدة على رامير الثالث فخلعه قومه وثار غاليسيا ونصبت على العرش بدلامنه برمود الثاني Bermude II فخضع هذا الاخير للحاجب بشرط ان يعينه على خصمه و كبار مملكته فبعث

(٢) دوزى ج ٣ ص ١٩٠ . وقد لقب لطمعه على ما يظهر . كذا يقول العلامة دوزى وترى بعض المؤرخين يسمونه بيدراسكا راجع هوارت ج ٢ ص ١٦٤ ج ١ ص ١٧٣

اليه بالجيوش واحتل ليون مدعياً ان ذلك خير وسيلة لتوطيد الامن وحماية الملك فصار ليون مقاطعة من المملكة الاسلامية الاسبانية^(١). ثم وجه المنصور قواه نحو كاتلونيا التي سادت فيها القوضى من جراء مظالم الروح الاقطاعية فسار ماراً بالبيرة و Bezou ولورقا وقد اخضع برسلونة وبرفته اربعون من الشعراء لينشدوه مفاخره وكانت هذه هي الحملة الثالثة والعشرون من نوعها (٩٨٥ م) .

عانت الجنود الاندلسية في ليون وعاملت سكانها معاملة الغالب للمغلوب فلم يطق برمود الثاني صبراً على هذه الحال وطرد المسلمين من بلاده فاجتاز المنصور الحدود سنة ٩٨٧ واحتل Coimbra وهدمها الى آخرها وفي السنة التي تلت عبرت جيوش المسلمين نهر الدور و Duero وتدفقت كالسيل العرم لا تبقي على القصور والكنائس والاديرة حتى وصلت ليون ذات الحصون والابراج المنيعة البالغة كثافتها نحواً من عشرين قدماً . فشبت الليونيون طويلاً غير ان المنصور تمكن منها اخيراً ولم يبق فيها حجراً على حجر^(٢) (٩٨٨ م) .

اكتشف ابن ابي عامر حين قومه من هذه الحملة المجيدة مؤامرة دبرها كبار الدولة وفيهم ابنه الامير عبدالله وكان شاباً شجاعاً لا يتجاوز

(١) دوزي ج ٣ ص ١٩٧ يذكر ان ليون اصبحت تحت الحماية الاسلامية بعد هذه الحملة . والحماية في عرفنا الخضوع لاسيما وان جنود الحاجب كانت تعيث فيها .

(٢) Recherches ج ١ ص ١٨١ - ١٨٤

الاثني والعشرين ربيعا وقد اقدموا عليها الزوال نفوذهم واضمحلاله
 فاعدمهم فاستقبل ابنه الموت وهو رابط الجأش سنة ٩٩٠ م .
 حكم المنصور اسبانيا نحواً من عشرين عاما ولقد آمل ان يورثها
 لابنائيه من بعده فلقب ابنه عبد الملك بالحاجب سنة ٩٩١ وتلقب هو
 نفسه بالمؤيد — لقب الخليفة هشام — وامر ان يدعى « بالسيد » و
 « الملك الكريم » سنة ٩٩٦ م ^(١) .

ترى لماذا لم يقبض المنصور على زمام الخلافة وقد اصبحت اسبانيا
 تحت قدميه؟ ان هشاما الضعيف لم يجرب البتة ان يفوز بسلطانه او ان
 يستنشق نسيم الحرية فيتخلص من نير المنصور. كذلك فان رجال
 العائلة المالكة قد لعبت السيوف في رقابهم فاعدموا ونفي الباقون
 وابتئسوا واصابهم من العذاب الوانا. فهل من الممكن اذن ان يعارضه
 الجيش؟ هذا ما لانظنه لان معظم الجند كان من البربر ومسيحيي الشمال
 والصفالبة وهم غرباء اجانب لا يعرفون غير الطاعة العمياء الا ان
 المنصور كان يخاف الامة باسرها لانها كانت تعترف ان آل امية هم الامراء
 الشرعيون وهم الورثة الحقيقيون للعرش والتاج وقد تمكن منها حب
 العائلة المالكة وتأصل في عروقها ولو تصدى ابن ابي عامر — ذلك
 الرجل الذي بلغت الدولة في ايامه اوج سعتها — للخلافة لهبت الامة
 هبة الرجل الواحد تقف دون آماله . فعلم ذلك حق العلم ولذا لم يرق
 عرشها لكنه اعتقد ان الراي العام لا بد ان يتحور فتتسى الامة خليفتهما

الفتى وتتحول الانظار نحوه ^(١) فترجح كفة ميزانه .

كانت السيدة صبيح ساعده الاكبر في بلوغه الغاية التي ليس وراءها غاية من الرفعة . اما الان فاخذت تنصب له الشراك لايقاعه وذلك حين احدثت الايام جذوة الحب المشتعلة في قلبي الحبيبين الطموحين فانقلب حبها الى بغض شديد وجعلت تبث في ابنها الخليفة روح الانفة والرجولية بعد ان امانتها كما يخلع نير الحاجب المنصور عنه . ثم ارسلت الدعاء في البلاد قائلة ان الخليفة يود الحياة الحرة والانطلاق من سجنه الضيق المزخرف فتام زيري بن عطية ^(٢) في موريتانيا يطلب الافراج عنه غير ان المنصور ارسل اليه عبد الملك المظفر ابنه فالتف حوله البربر وناجزوا زيري الحساب في معركة فاصلة شنت شمله بها سنة ٩٨٨ فمات متأثراً من الجراح التي اصابته سنة ١٠٠١ ولما رأت السيدة انه لا قبل لها بما واؤة رجل الدولة رجعت الى الله وقضت ايامها في العبادة والتقوى كان معظم جيش المنصور في موريتانيا كما تبين لنا الا انه لم يعمل للشماليين من سبيل للاخلاص من سلطانه وجزيته . ومن شهيرات الحملات عليهم حملة القديس جاك دي كومبوستل (St. Jacques de Compostelle) وسنتياغو (Santiago) اوشانت ياقب كما يدعوها العرب وهي قاصية غايسيا واعظم مشاهد النصراري ببلاد الاندلس ، اليها يحجون من اقاصي فرنسا وايطاليا والمانيا ولها المنزلة الثانية بعد

(١) دوزي ج ٣ ص ٢٢٠

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨

رومية ولم يطمع احد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها
لصعوبة مسلكها فخرج اليها المنصور غازيا بالصائفة وهي غزوة الثامنة
والاريسون فجاز Coria و Visen و Porto وكان المنصور قد تقدم في انشاء

اسطول كبير في الموضع المعروف بقصر ابي وانس من ساحل غربي
البرتغال ويسمونه اليوم Alcacer de Sal و جهزه برجاله البحريين
وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة .
فاعانه في حملته هذه ونزل على سنتياغو فوجدها خالية من اهلها وهدم
المدينة باسوارها ومصانعها وكنيستها وحفظ المنصور قبرياق من
الخراب ثم رحل الى قرطبة بطريق Homego بعد ان اوطأ جنده اذ
ذاك سانت مانكش على البحر المحيط كما يقول المقرئ (١) .

اما آخر صحيفة من تاريخ طالب طرش الحربي فهي انه في سنة
١٠٠٢ قام بجنوده وضرب الكاستيل فاحتل Cauel و خرب دير
القديس اميليان St Emilian حامي البلاد و شفيعها . ومما يؤثر عنه
انه كان يحمل اكنفانه معه الى ساحات القتال وقد خاطبها بناته وفيما هو
قافل الى العاصمة اتابه مرض شديد فقضى في ١٠ اغسطس في مدينة
سالم سنة ١٠٠٢ .

حقا ان شماليي اسبانيا لم يقاوموا رجلا اشد مراسا من المنصور فلقد

(١) المقرئ ج ٣ ص ١٩٣ — ١٩٤ راجع دوزي ص ٢٢٩ — ٢٣٥ ولان بول
ص ١٦٥ ، وكوبه ج ٢ ص ١٨٣ وكونده ج ٢ ص ٢٢٥ وموارت ج ٢ ص ١٦٥

غزاهم اكثر من خمسين غزوة اذ كان يرتادهم مرتين في كل عام وهدم
مدنهم الكثيرة وعواصم ثلاث هي ليون وبامبلون وبرسلونه واطالما
ارتعدوا فرقا لذكراه وتمثل لهم الرعب في شخصه . وكان صارما في تعاليمه
الحربية محبا للجند فاطاعوه واصبحوا حصن اسبانيا الاسلامية الحصين
وقوة ضاهت قوى جيوش عبد الرحمن الناصر وشجع النعالم الدينية
والاداب فام بلاطه الشعراء كصاعد البغدادي وغيره ومهد المواصلات
ووسع المسجد الجامع وبني قنطرة على نهر قرطبة الاعظم انتهت
النفقة لها الى اربعين الف دينار وشيد اخرى في استجه Enija على نهر

شذيل Xenil

هذه سيرة طالب طرش الذي صار امير البلاد بمد ان اقام ماسكه
على الجاهم وارتكب المحرمات والجرائم مما تاباه المقاييس الاخلاقية
اشد الالباء . اما الانصاف فيقضي ان نقول انه كان عادلا فبسط الحق
في الربوع حتى ضرب بذلك المثل ^(١) .



النصارى تحت حكم المسلمين في اسبانيا والاندلس

حضرات الافاضل اصحاب المقتطف

عليكم السلام والرضوان وبعد فقد جاء بعدد ابريل سنة ١٩٢٣
من المقتطف صحيفة ٣٣٠ من مقال شائق مفيد بعنوان فتح الاندلس
وبامضاء الفاضل المحقق انيس افندي زكريا النصولي ما يأتي نصه : -
(١) لما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جمعوا لا يعبأون بالمعاهدات
التي عقدها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم اليها حين ابتداء
الفتح

(٢) ان عبدالرحمن الداخل حجز املاك ارطباس احد ابناء غيظشة
بحجة انها كثيرة على اسباني واحد وكان طارق قد عاهده على حفظها
وثبت ذلك الخليفة نفسه

ومفاد هذا القول وما تقدمه صراحة او ضمنا ان المسلمين كانوا
خيراً وبركة من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية فلما من الوجهة

احببنا نشر فصول هذا الجزء من كتابنا « الدولة الاموية في قرطبة » في المجلات
المختلفة في الاقطار العربية العزيزة مصر والشام والعراق حتى تقع تحت انظار عامائنا
الافاضل فينقدونها ويرشدوننا بأرائهم فيما نكتب وما اتنا نثبت فيما يلي اراء الاستاذين
الكريمين حسين لييب وزكي النقاش في فصل « فتح الاندلس » انما للفائدة .

المؤلف

الدينية فانهم جاروا وما عدلوا وقلبوا ظهر المجن للنصارى . وهذا قول لا يؤخذ به على الاطلاق وقد دحضه كتاب النصارى ومؤرخوهم انفسهم انتصاراً للحق وتحريراً لوقائع التاريخ الثابتة وعندى ان حضرة المؤرخ الفاضل قد جرى كتاب الكنيسة الاول ومن جاراهم . فاما المنصفون من محدثي انورخين امثال العلامتين ^(١) (برنارد والين هوايشو) مؤلفي كتاب « اسبانيا العربية » واستانلي لين يوول مؤلف كتاب « العرب في اسبانيا » فقد ذكروا ان المسلمين كانوا آية في التسامح وانهم صرحوا بجرية الاديان وجعلوها حرة بالفعل وما تعرضوا للنصارى بأذى . ونحن نقل عنهم ما يأتي فقد ذكر صاحبنا « كتاب اسبانيا العربية » بصحيفة ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ وما بعدها ما يأتي تعريبه بالحرف الواحد :
 اذا صدقنا رواية مؤرخي الكنائس ومن تابعهم تبين لنا ان مركز الكنيسة النصرانية واتباعها اثناء الاحتلال الاسلامي لاسبانيا كان عبارة عن اضطهاد وظلم مستمرين طويلين وعهد استشهاد وموت في سبيل الديانة النصرانية . مع ان الحق الذي لا ريب فيه انه لغاية دخول الموحدون الذين هزوا بعض الهفوات في حق النصارى وعاملوهم في احايين قليلة بشيء من التسوية كان حال النصارى على العموم حسنا وتمتعوا بهناء التسامح وعوملوا بعدل ورحمة ولم يشترط عليهم تلقاء ذلك الا دفع ضرائب خفيفة جداً مع الامتناع عن امتهان دين الفاتحين اي المسلمين واذا تصفحنا الكتاب المعروف باسم *Espana Sagrada* يتبين

(١) Arabic Spain by Bernhard & E. M. Whishaw

لنا بشكل لا يقبل الشك ان رجال الدين المسيحي وممارسة الشعائر
المسيحية وامور الرهبنة المسيحية ، كل ذلك لم يمس بسوء مدة قرنين
من الزمان بعد تاريخ الفتح الاسلامي . وبعد مضي القرنين المذكورين
لا ينص الكتاب على الموضوع نصا صريحا بل تدل حوادث السنين
الاخيرة للاحتلال الاسلامي ان النصراري كانوا يتمتعون بحرية وهناء
مستمرين ولناخذ على صحة ما نقول بعض الامثال القليلة

(١) من ذلك انه ورد اسم ستة من الاساقفة على قسم قرطبة
مارسوا شؤون وظائفهم من سنة ٨٥٠ الى سنة ٩٨٨ وذكر بعضهم
مسجلا باسم (١٣) ثلاثة عشر اسقفا لقسم اشبيلية تشغل مدة وظائفهم
المدة الممتدة الى نصف القرن الثاني عشر . وذكر بصدد ما لفته انه كان
ها اذ نف سنة ٨٦٥ واسقف آخر في اخر القرن الحادي عشر .
وذكر اسقفا لمارده في القرن التاسع وسبعة اساقفة لكوامبرة وتسعة
اساقفة لفيروكا ذكر ان طليطلة تناب على كرسي اسقفيتها احد عشر
اسقفا من سنة ٩١٣ الى سنة ١٠٧٧ . وزعم رودريك الطليطلي ان
اساقفة شدونته ونباله ومرشانه اعتصموا بطليطلة سنة ١١٤٦ عند مجيء
الموحدين الى اسبانيا وذكروا انه وجد بقرطبة ست كنائس بداخلها
ومثلها في خارجها في منتصف القرن التاسع وفي لشبونه حفظت اكثر
من كنيسة لاستعمال النصراري

واهم من ذلك ، ان الموحدين انفسهم الذين رماهم بعض المؤرخين
بعدم التسامح قد امروا باتمام بناء كنيسة سان لوكار بين اشبيلية ونباله

ولا تزال قائمة الى يومنا هذا . ذكر ذلك المؤرخ النصراني Morgado هذا فضلا عن كنيسة الغراب القريبة من رأس الغرب وهو راس سان فنسان الشاخص في المحيط وقد وصفه الادريسي باسهاب لا يزيد عليه الا قولنا انها كنيسة بنيت حوالي نصف القرن الثامن لتضم اعلاق الادييس سان فنسان بعد نقلها من بلنسية وان استمرار بقائها مع ما الحق بها ووقف عليها من الاملاك الواسعة والاراضي الخصبة اعظم دليل على تسامح المسلمين مع اخوانهم النصارى .

وذكر Ayala في تاريخه انه ترك للنصارى ست كنائس يصلون فيها في طليطله . وقد ذكرنا عدداً من الاساقفة فيما تقدم فهو لا كان لهم دوائر دينية واسعة يحكمون فيها وتحت سلطانهم جملة كنائس — وذكر Florez نقلاً عن St. Eulogius انه في زمنه كان يخول للنصارى بناء كنائس وان نصارى قرطبة كانت لهم الحرية الدينية باوسع معانيها وانه كان لهم كنائس ولها البواقيس تدق وفيها الطقوس والشعائر تمارس بكامل الحرية وليس هذا فقط بل ان اوقات المحنة والاضطرابات الشديدة ما كانت لتحول دون سير الجنازات المسيحية بكل ابهةا علنا في الشوارع من غير تعرض . ولم يفرد مساوسة النصارى بالتمتع بالحرية الدينية بل تشاركهم في ذلك الرهبان الذين اقاموا في صوامعهم واربطتهم آمنين مطمئنين وزاد عدد الصوامع والبيم زيادة عظيمة ونما نمواً كبيراً فكان في ارباض قرطبة ثمانية اديرة . وجاء في تاريخ القرن المذكور اسما رؤساء هذه الاديرة منهم رجل يقال له سامسون اهدي كنيسة القديسة سبستيان

في قرطبة سنة ٨٧٥ ناقوسا عظيما لا يزال موجوداً فيها . ومما يدل على تسامح المسلمين وتمامهم مع النصارى ان عبد الرحمن بن المنصور الوزير المشهور اقام ليلة في دير قبل تاريخ قتله بمدة وجيزة .

وذكر استانلي لين بول بصحيفة ٨٢ وما بعدها ما نقلنا عنه ملخصا في غضون الكلام عن عبد الرحمن الاوسط ونصه كالآتي :

هذا ولا يحسن ان تطوى صحيفة عبد الرحمن الاوسط من غير اشارة الى علاقة المسلمين بالمسيحيين المحكومين من الاسبانيين فقد كان المسلمون عامة على احسن ما يكون قوم قد ملكوا ناصية السيادة وتحكموا في رقاب العباد تسامحا مع غيرهم ممن يكون على غير دينهم وكان امرؤهم وحكامهم وقضاةهم وفقهاؤهم يحسنون معاملة من آثر البقاء على دين آباءه واجداده من الاسبانيين فكان العدل ماشيا بين سائر اصناف الرعية على السواء لا فرق بين عربي واسباني مسلم ومسيحي حتى لا نبالغ اذا قلنا ان صحيفة تاريخ الحكم الاسباني في الاندلس انقى صحيفة في تاريخ الاسلام كله . وقد تربت السن المعاصرين بالثناء عليهم والدعاء لهم وكان المسيحي في ظل عبد الرحمن الاوسط ومن تقدمه من الامراء في مجبوحة من الامن على نفسه وماله وعرضه ، يمارس شعائر دينه ولا من يمانعه او يتعرض له او يزدرى به وكان المسلمون يفضون العين عن اذى المسيحيين واقوال رعاهم الذين يوسعون الديانة الاسلامية السمحة سبا ويقولون في نبي المسلمين الاقويل : غير ان فريقا من النصارى غاظه هذا التسامح وكره ان يكون ملك

المسلمين قائماً وعدلهم فاشيا في الجميع و اراد ان ينفخ في عامة النصارى
روح التمرد والعصيان وجعل قوم من متطعي القساوسة ورجال الدين
يسبون المسلمين علنا ويرمون الاسلام بما هو منه بريء ووصل بهم
التهموس والجنون الى حد طلب الموت من طريق التحرش بالمسلمين
والتعرض لهم بتعليق الاهانات مع ان مؤرخي الفرنجة يشهدون
بالقول الصريح ان المسلمين ما كانوا يقرنون اسم السيد المسيح الابسائر
الفاظ الاجلال والتكريم ولا يشيرون الى نصوص تعاليمه الاصلية الا
بعبارات الاحترام . نعم راجع بين متهوسي النصارى لعهد عبد الرحمن
الاولى مذهب الرغبة في الموت فداء لدين المسيح ولو انصفوا لقالوا
فداء الجاهل والغباوة والجنون المطبق . وكيف لا يوصف قوم ينكرون
جميل المسلمين ويقابلون بالاذى عدلهم وتسامحهم وحسن معاملتهم
وانماض العين عن اذاهم بالجنون والغباوة .

اما القول بان عبد الرحمن حجز املاك اربطاس احد ابناء غيطشه
بجدة انها كثيرة على اسباني واحد فزعهم لانيهض على تأييده دليل
عقلي او نقلي لان العالم باحوال الاندلس لدى مجيء عبد الرحمن الداخل
الها يعلم علم اليقين انه كان من حرج المرابين الاحزاب المتعددة
والاطماع المتنافرة بحيث لا يجيز لنفسه ركوب المراكب الخشنة من
السياسات كاحراج صدور اولاد غيطشه ومن والاهم واتصل بهم
وقد كانوا حزبا كبيرا مسموع الكلمة وكان عبد الرحمن حاذقا فطنا
ليبام وفق السياسة بقرب الاعداء وينفخهم بالصلوات ويرقيهم الى اسمى

المناصب في البلاد فكان لذلك يربأ بنفسه ان يكون حربا على قوم
لاتؤمن مغبة معاداهم. هذا فضلا عما جاء في ترجمة خطية لكتاب قيم
في تاريخ الاندلس ينسب الى رجل يقال له ابن القوطية وقد اورد
هذه الترجمة وهي (ليوليان ريبارة) العلامة (پونس) ورواه عنه
الفاضلان برنارد والن المتقدم ذكرهما فن شاء فليراجع صحيفة ٥٢
وما بعدها من كتابهما « اسبانيا العربية ». و صفوة ماجاء بهذا الصدد
ان عبد الرحمن الداخل مر بارض ارطباس فوجدها ارضا واسعة جداً
كثيرة الخيرات والبركات وافرة المحصول والغلات ووجد عندها به
خلقا كثيرين يحملون له الهدايا والارزاق ويتقربون اليه زاني فحسده
عبد الرحمن على مكانته وخاف من سعة نفوذه على دولته اولعله سمع
فيه وشاية عدو فصدر املاكه حقيقة ولكن كاذك الى حين ولم يك
ارطباس يراجعه في الامر حتى رد له كل ما اخذ منه وعاد
فرحاً مسروراً .

وختاماً نشكر الاستاذ انيس زكريا النصولي على الحقائق الثمينة التي
اوردها الفائدة المشتغلين بتاريخ الاندلس وهو تاريخ على اهميته لا يزال قابل
المصادر في اللغة العربية ومما يجمل لعمل الاستاذ قيمة خاصة ان في
تاريخ الاندلس نقطا كثيرة تستوقف النظر لتضارب اقوال المؤرخين
بشأنها : من ذلك موقف اولاد غيطشه من جيش « لوزريق » فقد ذكر
صاحب نفح الطيب وتابيه الاستاذ النصولي « راجع مقتطف فبراير »
ان ولدي غيطشه كانا على جناحي جيش لوزريق وهو قول لا يسلم به

العقل لان لو ذريق معتصب، اغتصب العرش بن اولاد غيطشه فلا يعقل
ان يوليها امراها ما في الجيش و هو قيادة الجناحين مع علمه بكراهتهما
له لما فعل بهما و بما اساء اليهما

فهذا يدل على ان التاليف في تاريخ الاندلس ليس من الامور الهينة
فكل ما جاء بالمقتطف في موضوعه خدمة جليلة للغة العربية و تاريخ
امة العرب . اه

حسين لبيب

استاذ التاريخ بمدرسة القضاء الشرعي

(١) فتح الاندلس

ان الشرارة التي تضيء فتظهر حقائق التاريخ بيضاء ناصعة من جراء احتسك الافكار بعضها ببعض ، وان الغربال الذي يحمله اصحاب الانتقاد العمراني من المؤرخين وغيرهم هو اكبر وسيلة يقدر بها الباحثون على استنطاق الحادثات ومعرفة اسبابها وفواعلها وتناججها ولذا فاني اشكر من صميم القلب للاستاذ المؤرخ حسين اييب اهتمامه بانتقاد مقال فتح الاندلس « مقتطف دسمبر ٩٢٢ الى ابريل سنة ٩٢٣ » وابدأ بسرد ارأى فاقول :

اخذ الاستاذ المناضل علي قولي « لما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جعلوا لا يعباون بالمعاهدات التي عقدها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم لها حين ابتداء الفتح » دون ان يبحث عن البراهين التي اوردتها داعمة قولي في الجملة التالية وهي « ففي قرطبة عقدت الحكومة معاهدة مع مسيحييها تنص على حفظ كاتدرائية مار منصور لهم ولكن حين كثرت المهاجرة السورية الى قرطبة جعل العرب نصفها جامعا للمسلمين وهذا طبعا غير ما تنص عليه المعاهدة » ومن ثمة اباح لنفسه ان يستنتج من قولي هذا « ان العرب جاروا وما عدلوا وقلبوا ظهر المجن للنصارى » واخذ يبرهن ان العرب كانوا آية في التسامح الخ . ان المسلمين العرب كانوا رحمة وبركة عموما مدة اقامتهم في الاندلس

(١) الرد الذي نشره المؤلف على الاستاذ حسين اييب في مقتطف أغسطس سنة ١٩٢٣

ولكنهم مع تصریحهم بحرية الاديان وعدم ضغطهم على احد من هذا القبيل كان يرجع امر الكنيسة الى السلطنة العربية فتولي كهنتها ونعزلهم متى شاءت وهكذا المؤتمرات الدينية فما كانت تعقد الا باذن منها « مقتطف ابريل » ويثبت الاستاذ R. Dozy الذي خصص حياته لدرس الاندلس فاصبح ثقتها الاكبر ذلك في كتابه *Histoire des Musulmans d'Espagne* الجزء الثاني ٤٦ — ٤٧ بقوله « ومع ان الحرية الدينية كانت سائدة فان الكنيسة كانت خاضعة لعبودية قاسية . ان حق عقد المجامع وتعيين مطران او خلعه اصبح امره في يد السلاطين العرب وملوك الاستوري في الشمال بعد ان كان يبرم ذلك من قبل الملوك القوط (راجع المادة السادسة من قرارات مجمع طليطلة الثاني عشر و (*Vita Johannis Gorzelensis*) وحين كان يرفض بعض رجال الدين الاشتراك في مؤتمرا كان السلاطين ينصبون في مراتبهم المسلمين واليهود (راجع (*Samos, Apolog, LII, c. 8*) وكان يباع منصب المطرنة السامي للدافع السخي والمزايد الاخير *Laaro Epist XIII, c. 3 Samson Apolog LII c. 2,4* وهالك ايضا ما يقوله في صحيفة ٤٨ من الجزء نفسه (وحين وطد العرب اركانهم في اسبانيا اخذوا لا يسرون بحسب معاهداتهم سيرهم الاول من حيث الضبط يوم كانت قواهم لا تزال متزعزعة البنيان ففي قرطبة لم يحفظ للمسيحيين غير كاتدرائية مار منصور بمعاهدة عقدوها مع الفاتحين اذ ان بقية كنائسهم هدمت . ان العرب حافظوا على نصوص معاهدتهم هذه السنين ولكن حين كثرت المهاجرة السورية

في قرطبة كما فعلوا في بيع النصارى بدمشق وحمص وغيرهما من بلادهم
حيث زعوا من مسيحييها انصاف كاندراياتهم وحولوها الى مساجد
(راجع ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار صفحة ٥٢ - ٥٣
من الجزء الاول طبعة مصر ورحلة ابن جبير صفحة ٣٦٢ طبعة ليدن سنة
١٩٠٧ والاصطخري صفحة ٣٣)

ان المقرئ لا ينكر نقض معاهدة قرطبة بل يذكر في الجزء الاول
صفحة ٣٦٢ من الطبعة الازهرية المصرية في هذا الصدد ما ياتي : « نظر
عبد الرحمن في امر الجامع فذهب الى توسعته واتقان بنيانه فاحضر
اعاظم النصارى وسامهم ببيع ما بقي بايديهم من كنيستهم لصق
الجامع ليدخله فيه واورع لهم بالبذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه فابوا
بييع ما بايديهم وسألوا بعد المجد بهم ان يباحوا بناء كنيستهم التي هدمت
عليهم بخارج المدينة على ان يتخلوا لهم امين عن هذا الشرط الذي طولبوا
به فتم الامر على ذلك » .

هذا ما نود اثباته في شان ملاحظتكم الاولى ولعلكم تؤيدون قولنا
(ان العرب لم ينظروا الى معاهداتهم نظرهم الاول لها حين ابتداء الفتح)
وان كانوا آبه في التسامح عموما .

اما القول بان عبد الرحمن لا يجرا على احراج صدور اولاد غيظته
ومن والاهم واتصل بهم لانهم حزب كبير ولان عبد الرحمن حاذق فطن
ولان المركز كان خرجا بين الاحزاب المتعددة والاطماع المتنافرة فلا
يعني انه لم يقدم على حجز املاك اربطباس وهو الذي فنك بالاحزاب

الواحد اثر الآخرو لم يرحم عربيهما من بربريهما او اسبانيهما في سبيل
توطيد الدولة الاموية في قرطبة . وهك ايضا ما يقوله دوزي في
هذا الخصوص ج ٢ صفحة ٤٩ : ان عبدالرحمن صادر املاك ارطباس
لانها كثيرة على مسيحي بمد ان عاهده عليها طارق وثبت ذلك الخليفة
نفسه . وقد جاء في المقرئ ج ١ صفحة ١٢٤ في شان تشييد المعاهد
مانياتي « وقد انفذ طارق اولاد غيطشه الى امير المؤمنين الوليد بدمشق
فلما وصلوا الى الوليد اكرمهم ونفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم
وعقد لسكل واحد منهم سجلا » راجع ايضا صفحة ٤٧ من كتاب

Whishaws Arabic Spain

اذا صحت رواية العلامتين (المنصفين) Whishaws في ان
عبد الرحمن ارجع لارطباس عشرين ضيعة (راجع صفحة ٥٣ من
كتابهما) من املاكه التي كانت الف ضيعة (راجع المقرئ ج ١
صفحة ١٢٥) فيكون قد ارجع له $1/50$ من املاكه وهذا ايضا
خرق لحرمة المعاهدة . اليس كذلك ؟

ان رايم القائل بانه ليس من المعتول ان يكون ولدا غيطشه على
جناحي جيش لذريق وهو مفتصب عرش ابيهم فقد سبقكم اليه
« العلامتان المنصفان » Whishaws في كتابهما صفحة ٤٣ وتابعتوهما على
ما يظهر لنا وهو قول ليس لنا ما يثبت له ولكنه وجيه بذاته على ان
ما اوردناه اتى به قبلنا المقرئ ج ١ صفحة ١٢٠ وكوبه ج ١ صفحة
٢٦٥ وهو محتمل الوقوع لاسيما وان البلاد كانت تجاه عدو واحد فانح .

(١) فتح الاندلس

حضرات الافاضل اصحاب المقتطف

سلاما واحتراما وبعد فقد طالعت في الاعداد الخمسة الاخيرة من المقتطف رسالة ممتعة للكاتب الفتي انيس افندي النصولي موضوعها « فتح الاندلس » ولما راقني منها جلها وخالفته في بعضها احببت ان تفسحوا لي مجالا — اذا طاب لكم ذلك بين صفحات المقتطف لنشر كلمتي هذه عنها ولكم الشكر من قبل ومن بعد .

استهل الكاتب رسالته بكلمة عن الحالة العمومية في الاندلس ثم فصلها تفصيلا فعدد العناصر المختلفة المؤلفة لمجموع سكانها كالسلي (الاسباني الاصلي) والروماني والقوطي واليهودي ثم بسط الفوارق التي بين كل منها وبين منزلة هذا وذاك ومقدار نفوذ كل منهما في هئتهم الاجتماعية .

ثم تطرق الى ذكر الاخلاق وما وصلت اليه من الانحطاط البين واستطرد الى الحالة السياسية وبين الاحزاب المختلفة النزعة والتي كانت قد بدأت الاحساد تأكل صدور اصحابها حتى افضى نزاعهم وتشاكسهم الى اقتحام العرب لبلادهم واكتساحهم اراضيهم ثم اضرام الثورة الفكرية بين افرادهم .

(١) المقال الذي نشره الاستاذ زكي النقاش في مقتطف يوليو ١٩٢٣ . انتقاداً

للفصل الاول من هذا الكتاب .

ولقد كان الكاتب في رسالته كما كان في مقدمتها لا يعتمد على رأي
الابعد قرعه بالرأي وتمحيصه حتى وحد بين مختلف آراء عدة مؤرخين
من افرنج وعرب والفضل في ذلك يعود لتضلعه من اللغات الثلاث
العربية والانكليزية والافرنسية وللطريق العلمي الذي سلكه في
تدبيجه الرسالة وكفى بهذا الاسلوب مشوقا لمطالعتها ومرغبا لاستزادة
الكاتب في طرق تلك المواضيع المفيدة التي بات مجموعنا بامس الحاجة
اليها وقد كاد ان يسود الخيال على الاذهان وان يستولي الجمود على
القرائح فيفسد على الناس اذواقهم اذ اصبح المتطفلون لا يجدون سواه
سبيلا للكتابة والتجبير . فالى الامام ايها الاخ الانيس وزودنا بما
لديك من امهات المواضيع مصورة بذلك القلم السيل مطبوعة بذلك
الطابع الجديد اعني به الاسلوب العلمي الاستقرائي البعيد عن الخيال
الجاف الذي لا يسمن ولا يغني من جوع والمملوء بالحقيقة المجردة غذاء
العقول والقلوب .

اما ما اخالف حضرة الكاتب فيه فما جاء في صفحة ٣١ من
مقتطف يناير حيث قال « ان طارقا اتى اسبانيا بجملة لا كتشافها وسلب
شواطئها كمن سلفه » . ولقد كان هذا الراي له استنتاجا عقليا كما ذكر
مستنداً على النقاط الآتية :

- (١) قلة عدد الجيوش التي كانت تحت امره طارق
- (٢) دعوة للمؤرخ « عريب » (وقد كاد ان يكون مجهولا لولا
جملة له وردت في كتاب المؤرخ دوزي فتمسك بها) وهي « مادعاك

الى الایغال والتقحم في بلاد بغير امري وانما كنت بميثك غازيا ثم
تنصرف « هذا على زعم صاحبها قول موسى لطارق حينما التقى به
في اسبانيا .

(٣) ان الزوارق التي ام بها العرب الاندلس لم تكن لابناء غيظاشه
بل للسكونت يوليان ثم شفيع براهينه هذه بقوله « ان ابناء غيظاشه
والعرب انفسهم لم يفكروا بالفتح الا عند توضع الجيش القوطي
امام جيش طارق . »

هذا رأي الكاتب مع ما اسنده اليه من الحجج العقلية والعقلية
اما رأيي في الامر فيخالفه للاسباب الآتية :

(١) ان قلة جيوش طارق كدليل على نزول العرب الاندلس
لمجرد الغزوا لا تقنع لان العرب لم يسبق لهم ان فتحو من البلاد غير
اسبانية بجيش اعظم ولا هاجموا ممالك غير مملكة القوط بمساكرا كثر .
(٢) ان معاهدة ابناء غيظاشه تدل صريحا على انهم كانوا معتقدين
ان القوم انما ارادوا الفتح ولولا ذلك لتضمنت بنودا تدل على طلبهم
ارجاع الملك اليهم وهم لم يفعلوا ذلك بل اقتصروا على طلب ضياع
ايهم (ص ١٢١ من المقرئ ج ١) .

اما مسألة السفن التي ام بها العرب بها الاندلس وانها تخص يوليان
دون ابناء غيظاشه فليست لتدل على ان اولئك علموا بمجيء طارق
فاتحا او غازيا بل انها تبرهن على بظفة يوليان وشدة تكتمه في امر
مؤامراته مع طارق حتى انهم لم يخاروه الا عندما استنفرهم لذريق

وطلب اليهم ان يكونوا كلهم يداً واحدة على العدو المشترك ثم
عوضاً عن ان يعملوا معه متناسين الاحقاد. مضوا تلك المعاهدة
المعلومة بنودها .

وهنا اراني اتساءل ان كيف جاز لخصرة " - كاتب ان يأخذ برأي
عريب دوز رأي ابن القوطية مع ان هذا معلومة مكاتبه وذاك مجهول
مقدار تحققة .

(٣) زد على ذلك ان موسى لم يرسل طارقاً للفتح الا بعد ان
تثبتت من خيانة يوليان الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت المانع
الوحيد دون اقتحام العرب للانديلس كما يذكر المقرئ وما كاد يمقد له
ويسيره حتى اخذ يبنى السفن وهذا مما يدل على عدم اكتفاء موسى
بالجيوش المرسله تحت طارق للفتح احتجى لا للغزو الموهوم ،

(٤) ثم ما كان يمنع موسى وهو الـ (Propogandist) بحق
والقائد الكبير من نشر الدعوة الاسلامية ومد السلطان العربي في
بلاد اصبحت سهلة الفتح والانتفاذ لاسيما وقد علم بما آلت اليه حالتها
من الضعف بسبب الاختلافات الجذسية والمنازعات الحزبية وبما وعد
به من المساعدة الداخلية ؟!

(٥) هناك حجة اخرى ادعم بها اعتقادي وهي ما جاء في مقال
الكاتب نفسه في (ص ٣٤ من عدد رايير من المتطف) « ان احتلال
العرب افرقيا الشمالية وسكنناهم بها حرك بهم حب الفتح الخ...
لاسيما وهي تشبه سوريا بسمائها الصافية واليمن بطيبة جرها و...»

اجل غنائها الطبيعي و غيرها من الاسباب ، جعلت العرب
ان لا يتخلوا عنها وهي سهلة الفتح والقياد ، اه .

(٦) ويجب ان لانسهو عن كتابة موسى للخليفة واستئذانه بالفتح
اذ لو لم يكن موسى قد وطد النفس على الفتح لما كان كتب الى الوليد
في دمشق في ذلك ولما سهل عليه الامر حينما حذره من التفرغ
بالمسلمين ثم لم يكن تحذر الخليفة الا لجهله الحالة الحقيقية ولشدة رغبة
موسى باقتحامها للوقوف على حقيقة امكانية الفتح .

(٧) اما عدم مجيء موسى منذ البدء فلواجب اكبر وهو اعداد
السفن وتجهيز الجيوش . وان هذا لكاف ليحول بينه وبين الافتكار
بالفخر والنصيب الاوفر من الغنيمة .

واني اعتقد ان في ما اوردت ما ثبت ان طارقا انما نزل الاندلس
للفتح لا مجرد الغزو فحسب .

ثم هناك امر آخر خالفت فيه حصرة الكاتب وهو ، دعواه ان
طارقا قد احرق السفن التي اقلته و جيوشه الى الشواطئ الاسبانية ،
واني لاثني على رأي المؤرخ Cope وهو ان طارقا لم يحرق السفن
المزودة عنها ، وادعمه بالادلة الآتية :

(١) ان المراكب لم تكن لطارق حتى يسوغ له التصرف بها
كيف شاء .

(٢) ثم لما لم يأت ذكر احراق طارق للسفن الا في ذلك الخطاب
المنسوب اليه المشكوك في صحته اصبحنا نرى امره ضعيفا وما هذا

الخطاب عندي الا لاحد الادباء المتأخرين عن طارق، تمثل الحالة ورسمها بخطابه كما اوحى اليه الخيال لا كما حنظله التاريخ الثابت بالعقل والعقل مما وليس بالمعقول حدوث الاحراق لان طارقاً لم يجتمع بجيش لذريق الا بعد ان قطع مسافة غير يسيرة من الشاطيء والخطاب يذكر ان طارقاً احرق السفن عندما نزل الشاطيء وهذا كما هو بين وهم لا حقيقة لانه لو صح ذلك عن طارق لكان قبل ان يهاجم جيش لذريق المحيم حول قرطبة البعيدة عن الشاطيء غروراً كما ذكرت .

(٣) ولندكر قول المقرئ من ان موسى ما فتى يبني السفن منذ وجه طارقاً وقول Coppe ان الاسطول كان دوما حركة الاتصال بين الشاطئين الاقربتي والاوربي . فكيف نوفق بين هاتين الحقيقتين وبين ذلك الوهم الا اذا رفضنا الاخير واخذنا بهما وهو الاقرب الى الصواب .

وفي هذا ما يثبت ايضاً ان طارقاً لم يحرق السفن البتة .

هذا ما احببت الفات النظر اليه . واني لاهني الاخ بفوزه واستزیده من مثل هذه الابحاث التي ترفع الستار عن مجد كاد ينسى لولا ان كان له امثاله فينعمشون الامة بنسبات امجاد سلف لا يزال حياً بآثاره الخالدة وامجاده السالفة .

زكي النقاش

بيروت

الفهرست

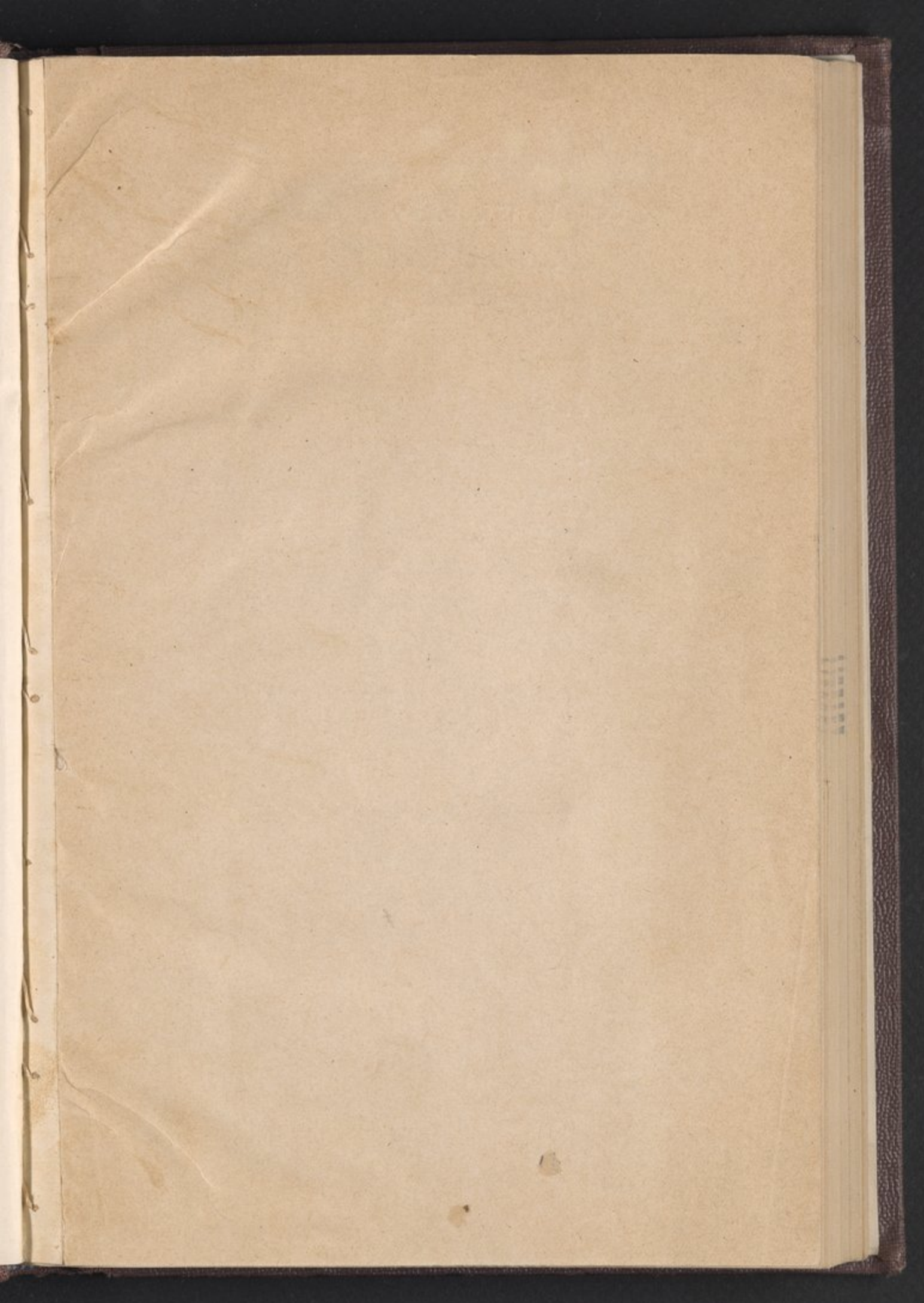
	صفحة
نشرت في المقتطف (ديسمبر ١٩٢٢ - ابريل ١٩٢٣)	٥ فتح الاندلس
(يوليو و أغسطس ١٩٢٣)	٤٣ عبد الرحمن الداخل
الحرية البغدادية ١٩٢٥ - ١٩٢٦	٦١ خلفاء عبد الرحمن الداخل
المرأة الجديدة البيروتية مموز ، آب	١٠٣ الدولة الاموية في اوج علاها
ايلول سنة ١٩٢٥	
الحرية البغدادية شباط و آذار و نيسان ١٩٢٥	١٢٣ الحاجب المنصور
للإستاذ حسين لبيب نشره في مقتطف يونيو	١٤٢ النصارى تحت حكم المسلمين
١٩٢٣ انتقاداً للفصل الاول من هذا الكتاب	في اسبانيا و الاندلس
رد المؤلف على الاستاذ حسين لبيب	١٥٠ فتح الاندلس
للإستاذ زكي النقاش نشره في مقتطف يوليو	١٥٤
١٩٢٣ انتقاداً للفصل الاول ايضاً	

ملاحظة و واجب الشكر

سننشر المصادر التي اعتمدنا عليها مع فهرسين لاسماء الاعلام و الامكنة التي وردت في الكتاب في الجزء الثاني و وعدنا بذلك قريباً انشاء الله .
وهنا لا بد لي من شكر جميع اخواني الادباء الذين آزروني في قراءة المـسودات لاسماعيل عبد الحميد افندي حمدي . و قد وقعت بعض اغلاط مطبعية لا بد منها ابداً لان مرتبي الحروف في المطابع يريدون ذلك فلننزل عند شيتهم صاغرين و اخيراً لا بد لي من شكر مجلاتنا العربية التي نشرت فصول هذا الكتاب لاسيما المقتطف الاخر مشجعي الاول .

الرجاء اصلاح هذه الاغلاط المطبعية قبل قراءة الكتاب

الصواب	الخطا	الصفحة
تراجان	تراسان	٣٣
سفراءها	شعراءها	٤٩
كثيرين	كثيرة	٥٢
ينظرون	ان ينظروا	٥٢
الامر	امر	٥٢
احدتها	حدتها	٥٣
تختص	تخص	٥٣
لشعورهم	بشعورهم	٧١
ياجم	هجم	١١٢



THE
LIBRARY
OF THE
MUSEUM OF
COMPARATIVE ZOOLOGY
AND ANATOMY
HARVARD UNIVERSITY

AUC - LIBRARY



DATE DUE

~~30 APR 1988~~



9 JUN 1991



23 SEP 1991



A.U.C

2 MAY 1995



A.U.C

14 MAY 1995



A.U.C

19 JUN 1995

98
N3x
1926

197A

DEC

115069175
b13214482



10000059967

